جريمة شيطانية

عبدالرحمن توفيق

الكتاب: جريمة شيطانية

المؤلف: عبد الرحمن توفيق

تصميم الغلاف: أحمد وهبة

التدقيق اللغوي: محمد عبد العال

التنسيق الداخلي: هند محمود كمال

رقم الإيداع: 2025/16738

الترقيم الدولي: 978-977-778-454-2

---

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة

ت: 01096539633

إيميل: info@noonpublishing.com

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

1

كانت ليلة باردة غير عادية، وقتها كان بوسعي سماع الهواء وهو يصطدم بالنافذة التي ارتدت من تلقاء نفسها كطفل لسعه اللهب، تدثرت بغطاء صوفي والتزمت السرير، أذكر التاريخ جيدًا، إنه الحادي والعشرون من شهر يناير للعام 1983 لم يكن البرد قاسيًا معي من قبل، دارنا في المنصورة كانت دافئة في الصيف والشتاء على حد سواء، لكن وقت تلك الحادثة كنت أبعد ما يكون عن قرى المنصورة، أسكن في الطابق الثالث من عمارة تقع في حي العتبة، وحدة سكنية صغيرة وملاءمة لشاب أعزب، غرفتان ضيقتان، مطبخ وحمام ولا شيء آخر تقريبًا إلا أثاث متواضع، يومها قد أتممت أربعة أشهر دون عمل يذكر، والقاهرة مدينة قد يختفي فيها الفيل دون أثر، كنت أشعر أنني مهما قضيت فيها من وقت فلن أتم معرفتي بها، لم أكن مستعجلًا وقتها على العمل، في الحقيقة تعللت بالبحث عن عمل حتى تحتضنني القاهرة لأطول فترة ممكنة، فمنذ تخرجت من كلية الحقوق وأنا أمازح القاهرة وألاطفها، حتى ذلك اليوم من شهر يناير الذي هبت رياحه، وبدأت المياه تتساقط من سمائه مطرًا حين بدأ كل شيء، من أنا؟ هذا سؤال ينبغي أن أجيب عليه بعناية، فهذه المعلومات لا يجوز الكذب فيها، أنا أحمد أباظة، وللأسف لست قريبًا من رشدي أباظة ولم أحظَ من الوسامة إلا بقدر هين أمامه، في ذلك اليوم سمعت نقرًا على الباب، لم أكن أستضيف أحدًا في منزلي، خاصة مساءً، في البداية ظننته نقر الهواء، وعندما تكرر أدركت أن أحدهم يقصد بابي، قمت مرغمًا وفتحت المزلاج بعد أن تكرر النقر للمرة الثالثة فإذا بحمودة يقف قبالتي، وهو فتى المقهى المجاور

للعمارة، يستخدمه السكان في جلب الطلبات، كان الماء يتقطر من جسده على الأرض لكنني ما كنت لأستضيفه داخل منزلي دون سابق دعوة، أو معرفة، أخذ يتنهد ثم نطق كأنما تذكر بعد نسيان:

– أستاذ أحمد، جاءك جواب الصبح؟

– جواب ؟

أخرجه من جيبه وقال:

– آه، المعلم استلمه حتى لا يضيع عليك، أنت تعرف أن موظف البريد كسول جدًا، لقد أضاع مرة جواب للمعلم، لكن المعلم لم يتركه فقد مسح به أرضية الشارع.

أمسكت مظروف الجواب منه ليصمت، ثم نزل دون أن يخبرني بشيء آخر، ندمت لأنني لم أطلب منه الدخول ليتقي المطر الذي بدأ منذ دقائق بالانهمار، لكنني الآن وبعد مرور كل تلك السنوات أدرك أنه كان ندمًا مفتعلًا لا أكثر، جلست على المنضدة، فتحت الجواب أسفل مصباح الغرفة، ثم قرأته دفعة واحدة.

عزيزي أحمد، تحية طيبة وبعد، بعدما طال بك البعاد، وانقضت الشهور عليك دون إيجاد عمل، فإنني لم يعجبني الحال، فتدخلت بنفسي لأطلب من أحد أصدقائي في القاهرة أن يجد لك عملًا، أعرف أنك لا تحب تدخلي في الأمر، لكنك أيضًا تقدر قلقي الشديد عليك، وإلحاح والدتك بالسؤال عنك، فكان لا بد لك أن تجد عملًا حتى يطمئن قلبها، وحتى لا تحزن فلم أتدخل لإيجاد فرصة عمل حكومية لك، بل على العكس، فهو عمل في مكتب محاماة خاص، الرجل

ينتظر منك زيارة في مكتبه، وأبلغك سلام الأسرة وقبلات والدتك.

والدك العزيز.. محمود أباظة

وقد أرفق العنوان مع المظروف في ورقة أخري، واسم المحامي الذي سأذهب للقائه - فيما يبدو - كان مميزًا بطريقة سينمائية مريبة، كان اسمه "يوسف فهمي"، ورقم الهاتف مدوّن بلون أسود لامع.

في الثامنة من مساء اليوم الثاني من شهر فبراير بدت نجوم سماء حي الزمالك كأعين مترصدة، كنت قد حادثت السيد يوسف فهمي هاتفيًا وقد حصلت على موعد معه في مكتبه القائم بأحد الشوارع الفخمة في حي الزمالك، عمارة تتألف من ثمانية طوابق، وقفت أمام العمارة وكنت أشعر برغبة في تدخين سيجارة وأنا أتأمل النافذة الخلفية لمكتب مضيء أحسبه هو هدفي المذكور، بينما أضع يديّ في جيب معطفي البني استوقفني رجل طويل القامة يرتدي قفازا من الجلد وقبعة مستديرة الأطراف، وسألني بصوت مبحوح:

– هل هذا هو شارع إبراهيم باشا؟

وكان هو اسم الشارع فأجبته وأنا أداعب أذنَيّ الباردتين:

– أجل.

رمقني بنظرة مطولة كأنه تفرس في وجهي، وتركني قبل أن يهم بسؤال آخر ما كان ليتفوه به، مضى بهدوء ناحية الناصية ووقف هناك للحظات ثم تحرك بهدوء إلى خارج الشارع بلا تردد، دخلت إلى البناية وانتظرت المصعد، وقبل أن أغلق بابه رافقني إلى الداخل رجل قصير القامة، يميل جسده إلى البدانة وشعر رأسه قد تطاير

من فوق جبهته حتى ما يقارب منتصف رأسه، وكان يرتدي معطفًا صوفيًا أزرق طويلًا، فرك يديه ثم قال لي فيما يبدو:

– حتى العصفور يتجمد ريشه في هذا البرد.

قال جملته ثم ساد صمت بيننا حتى وصلت إلى الطابق الرابع، لم أبحث لأجد ضالتي، بابًا خشبيًا له مفصلات نحاسية، علّقت لافتة خشبية عن يمينه نقش عليها "مكتب الأستاذ يوسف فهمي"، أدهشني عدم وجود لقب محامٍ أمام الاسم وتركه هكذا للشك، قمت بدق الجرس، لم يفتح أحد، نظرت في ساعة يدي فوجدتها الثامنة وخمس دقائق، تلفت من حولي فلم ألمح أحدًا. انتظرت دقيقة كاملة قبل أن أدق الجرس مرة أخرى دون فائدة، انتابني الضيق فوضعت يدي فوق جيب معطفي حيث ترقد علبة السجائر ثم تراجعت عن سحبها تحسبًا لمجيئه فجأة، وقتها لم أكن أحب أن يكتشف والدي عبر أحدهم أنني أدخّن، لو خيّرت في الأمر لأخبرته بنفسي عوضًا عن عناء المراوغة، لكنني في النهاية لا أريده أن يضع يده على هذه الحقيقة في مهدها، أذكر جيدًا مواء القطة وهي تنتفض مذعورة في الجانب الآخر من الممر حيث أقف، ثم جرت القطة إلى الأسفل، لم أتمالك أعصابي وقتها وكدت أقفز مثلها من المفاجئة، مضت دقيقة أخرى أو دقيقتين طرقت فيهما الباب ولم يفتح أحد. فمضيت ناحية المصعد بينما مصباح السقف يرتد ضوؤه في عيني إثر اصطدامه بسطح لامع مثبّت على الباب في الجهة الأخرى، ولما وصلت إلى المصعد سمعت وقع أقدام تتجه نزولًا، ليظهر صاحب المعطف الأزرق قبالتي وهو يبتسم بفمه العريض، لم يبدُ عليه أنه قد تعب النزول لكنه وقف جواري وكان أمرًا مريبًا، أخرج يديه من المعطف وقبل أن

أتكلم قال بصوت متزن كأنه يقرأ أفكاري تمامًا:

– هل تسألني لماذا لن أكمل الدرج نزولًا، وسآخذ المصعد معك؟

صدمني سؤاله، ليس فقط لأنني ما كنت سأقوله، بل لأنه قالها بثقة لا يمكن إغفالها، وقبل أن أضيف جملتي التي لم أكمل صياغتها بعد قال:

– لا يوجد تفسير لهذا سوى رغبتي في صحبة جيدة.

ثم ابتسم مرة أخرى من دون سبب، دلفنا المصعد وبينما نحن نزول سعل، فسألني منديلًا، أجبته بالإيجاب ومددت يدي إليه بواحد، تناوله ثم سألني:

– أنت لست من مرتادي العمارة، أليس كذلك؟

أجبته بهزة من رأسي بأنه محق، ولم أكن أريد تبادل حديث معه، فعلى الرغم من نبرة صوته الودية، إلا أنه مريب بشكل لا يمكن تجاهله، لم يبد مرتاحًا لصمتي الذي دفعه بدوره إلى إيقاف عجلة حديث لم تدر قط، ثم عندما بلغنا باب البناية وقبل أن نخرج قال:

– هل أنت هنا من أجل المحامي؟

لم أعرف لماذا أردت النفي، وهذا جعلني ألاحظ أنني أيضًا لم أسأله عن المحامي، لكنه بدا لي غريبًا بطريقة ما، في النهاية أجبته:

– نعم، لكنه ليس في مكتبه على ما يبدو.

– فقط لأن أحدًا لم يفتح الباب لا يعني أنه غير موجود.

– ماذا تقصد؟ هل تعرف أين هو؟

نظر في ساعة يده التي يرتديها في يمناه على خلاف العادة، ثم قال:

– المكان يحدده الوقت، الوقت يتغير والأمور تتبدل باستمرار، لكن دعنا من تلك التفاصيل، سآخذك إليه، ما رأيك؟

قد تمنيت سرًا أن لا أعثر على يوسف هذا، وهذا الوغد قد تبرع تواً - دون سابق معرفة - أن يوصلني إليه، يبدو أن القدر قد أحكم قبضته على تلك الليلة وسيوصلني إلى الرجل في مقابلة غير متوقعة، قلت في دفاع أخير:

– لكن الرجل أعطاني موعدنا هنا في المكتب، على الأرجح هو على وصول الآن، سأنتظره هنا في الشارع حتى يصل.

– كما تريد.

قال عبارته ثم تحرك وعبر عن يميني، شعرت بيده تتسلل إلى جيب معطفي، لكنها كانت حركة سريعة لم أكد ألاحظها فأنكرتها، وبعدما غادر الشارع شعرت أنني بدأت أتحرر من تلك المقابلة، هممت بالحركة عندما مر عامل النظافة من أمامي وكان طويل القامة، وسيم، ولديه حذاء أسود يلتمع فيرتد عنه الضوء كسطح مرآة، لمحت حذاءه عندما كاد يدهس قدمي، صحت فيه:

– حاذر!

فقال بعنف غير مبرر، وعيناه تتلونان بالبرتقالي من أثر المصباح المعلّق:

– متأسف.

لم أعره انتباها، لكنني شعرت أن حركة غريبة بدأت تشق صمت ما حولي، فهناك رجلان يقفان في الجانب البعيد عني من الشارع، وهناك امرأة تسير، تجر أمامها عربة طفل صغير.

شعرت بالريبة من حركة الشارع بعد ركود، وددت لو أرحل عنه لكنني بقيت لعشر دقائق أخري، ازدادت رغبتي في التدخين ولم أكن لأتحمّل مزيدًا من التوتر، مددت يدي إلى جيب المعطف فوجدت علبة السجائر وفوقها قطعة من القماش فيما يبدو، أخرجتها فوجدته منديلًا، تفحصته فرأيت عبارة قد كتبت فوقه بالحبر الأسود وبخط متناسق، العبارة كانت:

أنتظرك في السيارة الكائنة عند ناصية شارع فيروز. ملحوظة: لا تسأل أحدًا.

يوسف فهمي

ملأتني الأسئلة والشكوك حول تلك الطريقة المريبة لمقابلة يوسف فهمي، لكنه لم يترك لي خيارًا آخر بتلك الملاحظة التي أخافتني قليلًا، ذهبت إلى المكان المطلوب بخطوات حثيثة ودون أن أسأل أحد كما طلب، وقد وجدت سيارة فولكس زيتية اللون في المكان المحدد، ذهبت لهناك فوجدت الباب مفتوحًا، عندما اقتربت من بابها جذبتني يد بقوة للداخل في اللحظة التي صرخ أحدهم في الشارع:

– توقف مكانك!

انطلقنا بالسيارة التي اكتشفت أن سائقها هو الرجل السمين من

المصعد، والذي صافحني مبتسما وسكت.

2

يا لها من ليلة مريبة، عندما أستعيد شريط أحداث اليوم أمام عيناي أشعر بالريبة، أنا الآن أجلس إلى جوار رجل بالكاد قابلته، ليوصلني برجل لم أعرفه قط، سألته:

– هل سمعت الرجل الذي قال توقف؟

أجاب دون أن ينظر ناحيتي:

– نعم سمعته، كان عليك الأخذ بنصيحته.

شعرت بعدم الراحة، أصابتني صدمة من كلمته، سكت قليلًا ثم التفت ناحيتي وضحك، ثم قال:

– كنت أمزح، لا تقلق نحن في أمان.

– وهل ينبغي ألا نكون في أمان؟

مسح جبهته بمنديل يشبه الذي كتب لي فوقه رسالته، ثم قال:

– الحياة مليئة بالمفاجآت.

سألته والشك يتخلل أعصابي:

– هل أنت السيد يوسف فهمي؟

– بالطبع لست هو، نحن الآن ذاهبون إليه.

تبدل الطقس خارج العربة وقد بدأ في التقلب فجأة، أصبحت السماء مزدحمة بالغيوم، وبدأ المطر بالانهمار، أخذت أفكر مليًا فيما جرى، كنت متوترًا بلا شك، لكنني لم أكن خائفًا مما يجري، مضت

قرابة نصف ساعة من الصمت والأسئلة التي لم أنطقها قط حتى وصلنا إلى مطعم فخم في مصر الجديدة، اسم المطعم لم يكن مهمًا قط لأتذكره، مسحنا أقدامنا من الوحل الذي التصق بأقدامنا في أثناء المشيء من موقع إيقاف السيارة في الجانب الآخر من الطريق. دخلت بصحبة الرجل القصير الذي نسيت أن أسأله حتى عن اسمه فيما يبدو، دلني إلى طاولة شاغرة الزاوية اليمني من المطعم المفروش بالسجاد الأحمر والمضيء كليلة مرصعة بالنجوم، الطاولة كانت مغطاة بمفرش أزرق فوقه منفضة سجائر، مضت دقائق من الصمت تابعت فيها حركة الزبائن الذين كانوا في غاية الهدوء، طلب الرجل القصير معي من النادل كوبًا من الماء فعاد النادل ومعه الماء وعلبة سجائر أعطاها للرجل القصير:

– سيصل السيد يوسف في الموعد المتفق عليه.

ثم تركنا، مضت دقائق ثم دلف إلى القاعة رجل متوسط الطول، مشدود القوام، جسده متوسط الحجم، شعره أسود لامع، وله بشرة بيضاء، كان يرتدي بذلة سوداء لها قميص أبيض، تحرك بخطوات واثقة حتى جاء إلى طاولتنا مباشرة وجلس قبالتي وإلي جوار صديقنا القصير، قال بنبرة سريعة:

– أرى أنكم بخير، جيد.

نطق الرجل القصير:

– لقد تم الأمر كما طلبته مني.

– نعم بالطبع يمكنك أن تذهب الآن.

وقف الرجل وخرج من القاعة بهدوء، ثم قال الرجل الجالس مقابلًا لي:

– نعم أنا هو.

– ماذا تعني؟

– أنا يوسف فهمي، كنت ستسألني عن اسمي فأجبت، أتمنى أنك لم تنتظر طويلًا.

نظرت إلى ساعة يدي فوجدتها التاسعة، فقلت:

– بالنسبة إلى رجل لديه موعد في الثامنة فقد انتظرت طويلًا.

– نعم بالطبع، لهذا نحن هنا، لأعوضك عن التأخير.

ثم طقطق بإصبعه فجاء النادل مسرعًا، لكن هذه المرة نادل آخر، جسده ممشوق، ونظيف الثياب تمامًا:

– من فضلك نريد قائمة الطعام.

قالها ثم نظر ناحيتي وقال:

– أنت ضيفي الليلة، أنا سأدفع الحساب، وأنت تناول ما تريد.

ثم ناولني القائمة التي أخذها النادل من فوق الطاولة المجاورة، كانت قائمة طويلة مليئة بأصناف الطعام، ترددت كثيرًا بين المأكولات، وفي النهاية تركت القائمة على الطاولة وقلت ليوسف فهمي:

– لا شيء في بالي.

نظر إلى النادل ثم قال:

– حسنًا سأطلب أنا إذن، اجلب لي فرخة مشوية، طبقان من الأرز، والكثير من السلطة.

ذهب النادل فورًا، فأعاد يوسف الإشارة إليه فالتفت لنا، ثم قال يوسف:

– ألن تدون طلبنا؟

أجاب النادل مبتسمًا:

– سأحفظه يا سيدي، فهو طلبك المعتاد.

ثم رحل النادل عنا، وهمس يوسف:

– لا أطيق التملق الزائد.

كان المطعم فاخرًا كما ذكرت، وأنا لم أكن معتادًا على زيارة المطاعم، ليس لعوز إلى المال، لكن ربما عندي رغبة دائمة في سماع الناس يتحدثون، وهذه الرغبة لا تلبيها مثل هذه الأماكن، فهنا عادة يهمس الناس وهم يتناولون الطعام ببطء. كان يوسف هادئًا بشكل مدهش، قليل الالتفات حوله مما أوحي بأنه لا يهتم بما يدور حوله - وهو ما اكتشفت لاحقا بأنه استنتاج خاطئ تمامًا - سألني فجأة بينما ينظر إلى السجاد على الأرضية بإمعان

– والدك قد أخبرني بأنك ربما تحب العمل معي، لكنك بالتأكيد لا تعرف تحديدًا طبيعة أعمالي، ولا تعرفني حتى، يجب أن أكون صريحًا معك، أنا لست ذلك النوع من المحامين الذين قد تتصورهم،

ولا أعرف تحديدًا لماذا يريد لك والدك تلك المخاطر؟!

ظننت أنني ربما أخطأت سماعه فقلت:

– مخاطر؟!

– سأكون صريحًا معك، حياتي مليئة بالمخاطر، عملي ليس روتينيًا.

– وهل أبدو لك كرجل يحب الروتين؟

قلتها ثم نظرت للسجاد مرة أخرى فلاحظت أنه متسخ قليلًا، لا بد أنه رجل يحب النظافة، من هؤلاء الذين يخشون على صحتهم إلى حد مريب.

– لا أعرف بعد.

– ما هي طبيعة عملك؟

– أنت لن تهتم، لقد بدأت تشعر بالحماسة، لهذا لم تعد تختلس النظر إلى منفضة السجائر، لقد غادرتك الرغبة في التدخين، ولم تعد متوترًا كما حدث عندما قفزت القطة.

لم يهملني النادل وقتًا لأسأله كيف عرف، فقد وضع لنا الطعام وابتسم لنا بسذاجة ثم رحل، قتلني الفضول حول موضوع القطة فسألته مباشرة:

– كيف عرفت بشأن القطة؟

ضحك، ثم أخرج ورقة وقلم من جيبه، وقال سأخبرك الآن، كتب ما أراد ثم ناولني الورقة، ثم أشار إليّ بعلامة الصمت، قرأتها وشعرت

فجأة أنني غبي، بالطبع كنت قلقًا مما يجري حولي، لم نتناول الطعام، وبعد خمس دقائق تمامًا خرجت بمفردي من القاعة، إلى الشارع المبتل من المطر، وكان الوحل ملتصق بالأرصفة، لاحظت أن السيارة التي جئت فيها قد رحلت فانتظرت على الرصيف المقابل للمطعم لدقائق حتى خرج يوسف فهمي، كان واثق الخطى يمشي ملكًا، يتحرك بصورة هادئة، سرنا معًا حتى وصلنا إلى سيارة أخرى سوداء وأنيقة، عندما صعدنا إلى السيارة قال بنبرة مازحة:

– لا تبدو مرتعبًا؟ هل تخاف من القطط أكثر؟

– لماذا يريدون قتلك؟

– لا يريدون، أرادوا تخديري فقط!

– كيف عرفت؟! لم أفهم؟ والقطة أيضًا كيف عرفت بشأنها؟

– سأجيبك لاحقًا، علينا الآن أن نمسكهم، سيخرجون الآن من المطعم.

قالها ثم أخرج المسدس من جيبه، ثم ناولني واحدًا، لم أمسكه، فرمقني بنظرة حادة ثم قال:

– عليك أن تساعدني الآن، ولا تقلق، لن نطلق الرصاص.

أمسكت المسدس مرغمًا، وفي داخلي ارتباك ممتزج بقلق متزايد، مضت دقيقة أو أكثر قليلًا ثم خرج رجلان من المطعم، تابعناهما بأعيننا وهما يتحركان ليقابلا رجلًا ثالثًا عند منعطف الطريق، ثم تحركنا ناحيتهم بالسيارة فورًا وقلبي يرتجف مثل عصفور أصابه البرد، تحركنا بشكل طبيعي بالسيارة، ثم عندما صرنا بجانبهم تمامًا

أوقف يوسف السيارة وفتح الباب وأشهر المسدس ناحيتهم وقال بهدوء.

– فليركب النادل معنا، لدينا حفل في حاجة إلى خدمة ممتازة.

نظرت في وجوههم فتعرفت على اثنين منهم، أحدهم كان النادل في المطعم، والآخر كان عامل النظافة الذي قابلته في الشارع، ركب النادل معنا، جعلني يوسف أهدده بالمسدس، ريثما يقود السيارة بعيدًا عن بقيتهم، ثم انطلق يوسف إلى شارع فرعي هادئ، ثم نزل من السيارة وقام بربط قدمي النادل ويديه، ثم تحركنا مرة أخرى بالسيارة، قلت وقد أخذتني الدهشة:

– لقد رأيت واحد منهم في الشارع هذا اليوم، لقد كان الشحاذ، أدهشني الأمر.

قال يوسف:

– أما أنا فلم أندهش قط، كنت أعرف كل شيء.

كنت قد بدأت في الشك في كل شيء، لم أعد أفهم الأشياء بوضوح كما كنت أفعل سابقًا، سألته:

– هل يمكنك أن تخبرني كيف عرفت؟

– لا يوجد شحاذ يرتدي حذاءً نظيفًا لدرجة اللمعان، أما النادل فلم يكن يحمل معه أوراق كتابة الطلبات، ولا قائمة الطعام.

– ربما قد نسيهم؟

– ربما، لكن النادل لا يخرج من المطعم مطلقًا إلا بعد نهاية دوامه،

فكيف تتسخ الأرضية من وقع أقدامه، لقد خرج في المطر، لهذا فهو ليس من أفراد المطعم.

قال تفسيره، ثم سأل النادل:

– من طلب منك أن تختطفني؟

فأجابه:

– أنت تعرف أنني لن أخبرك.

أوقف يوسف السيارة وبدا غاضبًا، أخرج ورقة من جيبه، كتب فيها شيئًا ثم ناولها له وقال:

– هل أحد الأسماء في الورقة له يد فيما يجري لي من مراقبة، وهل أحدهم كلفك بخطفي، أمامك دقيقة للإجابة وإلا سيتحدث المسدس!

سكت قليلًا، فكّر ثم قال:

– نعم، ثلاثتهم كلفوا رجال بمراقبتك، وواحد منهم أراد خطفك.

قالها الرجل، وهنا أوقف يوسف السيارة في وسط الطريق، فك وثاق الرجل وقال له:

– لا أريد رؤيتك مرة أخرى، لو ظهرت قبالتي فأقسم إنني سأقتلك.

خرج الرجل من السيارة بهدوء، ورحل بعيدًا عنا، أما أنا فقد قتلني الفضول حول الأمر فسألت مرة أخرى كالطفل:

– هل سيعود مرة أخرى؟

– لقد وشى بمن أوكله بالمهمة، لن يعود مجددًا، سيتنازل عن المهمة، والآن أخبرني أين تسكن؟

– لا أريد توصيلة.

– لكن أرى في عينيك أنك لم تزل تريد العمل لديّ، ولا بد أنك تسأل عن بقية المخاطر التي قد تحدث لك وأنت معي، لكنها لن تمنعك عن المواصلة، وفوق كل ذلك تريد أن تعرف كيف لوالدك الهادئ أن تجمعه علاقة برجل مثلي يحمل المسدس معه دائمًا، سأخبرك ألا تعمل عندي، لكنك ستصمم على العمل ومعرفة التفاصيل الخاصة بما حدث اليوم.

– كيف عرفت؟

– إنها الحقيقة الوحيدة بشأن أمثالنا من البشر، من لديه نظرات مثلك، وفضول مضطرد فهو يحب أن ينغمس في تلك الأعمال، وهذه هي الحقيقة القبيحة التي تتجاهلها منذ أمد وقد جاء الوقت لتواجهها.

– لقد لاحظت الأوساخ على الأرضية في المطعم مثلك، والحذاء اللامع للشحاذ، لكن ما لم أعرفه هو أمر القطة.

– وتظاهرت بالاندهاش فقط لقد عرفت، هذه هي الصفة المشتركة في معظم الأذكياء، أنهم يتظاهرون بالجهل حتى أسرد لك التفاصيل، لكن ما يقتلك هو كيف عرفت بشأن القطة؟ لقد كنت داخل الشقة عندما كنت تضغط الجرس، انتهزت فرصة تحركهم

خلفك أنت وزميلي الآخر وخرجت من الشباك الآخر للبناية المقابلة، في الصباح كنت قد قطعت تذكرتين للسينما في الموعد نفسه فظنوا أننا سنتقابل في السينما، وهذا ما أعطاني الوقت الكافي للوصول إليكم. كنت أعرف أنهم لن يدخلوا الشقة لأنهم سبقوا وفعلوا في أثناء بحثهم عن ضالتهم وأنا أحجز تذاكر السينما، التي وبالمناسبة قد أهديتها إلى صديقي الذي ذهب بالفعل هو وأحد أصدقاءه في الموعد نفسه، وقد أعرته المعطف الخاص بي، وهو الذي طلبه عندما حذرت زوجته عبر الهاتف بأن الليلة سينهمر المطر غزيرًا فطالبته باستعارة معطفي، وقد وافقت ليظنوا أنني في السينما، ثم ذهبت إلى المطعم لأقابلك وأرسلت مع الرجل الذي أوصلك إلى المطعم ورقة مكتوب فيها موقع السينما ليذهب ويستجوب الرجل الآخر الذي يراقبني هناك للتأكد من تطابق الأسماء الثلاثة الذين أشك فيهم.

يوسف كان يتحدث بطريقة مثيرة، كأنه راوي قصة، بدا لي رجلًا خطيرًا مقارنة بهدوئه، خاصة وأنني قد أخطأت في اعتباره شخصًا لا يعير التفاصيل انتباها، لقد أثبت لي يوسف بأن هنالك آفاقًا أخرى لم أصل إليها بعقلي قط، وأن هنالك مغامرات تنتظرني بدلًا عن الأعمال المملة التي ظللت أتهرب منها. قلت له:

– ما الشيء الذي يريدونه منك؟

– هذا السؤال ما كان ينبغي أن تطرحه أبدًا!

– أعرف، أنا أريد أن أعمل لديك رغمًا عن كل شيء.

– وأنا موافق، موعدنا في اليوم نفسه لكن بعد أسبوعين من الآن،

هذه المرة الساعة السابعة مساءً، ولا تقلق سأفتح لك الباب.

تحركت السيارة ومعها يوسف فهمي، وعدت إلى منزلي وأنا أرتقب الموعد المقبل، وأنا أعرف تمام المعرفة أنني على موعد مع رجل خطير لكن مدهش.

3

عقارب الساعة تتحرك ببطء أعتقد أنه متعمد، لم تكن عندي أدنى فكرة عما أنا مقبل عليه، ربما أخذتني الشجاعة أكثر من اللازم من أجل البحث عن مغامرة، أو ربما أنا فقط أبحث عن نفسي، فلكل منا جزء ضائع يرفض الاعتراف به، جزء يدفعه إلى المجازفة التي لم يقدر عليها يومًا، على كل حال فقد كنت متحمسًا بأكثر مما يمكن وصفه، قضيت وقتي في الانتظار حتى الموعد المقبل الذي وعدني به يوسف، تنقلت في تلك الأيام بين السينمات، لكن يبدو أنها لم تعد تثير حماسي كالسابق، كنت أنتظر في كل لحظة، كنت أترقب أمرًا ما، أنظر إلى الزوايا البعيدة في السينما كأن أحدهم سيظهر هناك فجأة من العدم، ليخطفني بعيدًا حيث لا أعرف للوقت مدلولًا، بقيت منتظرًا وعقارب الساعة أبدًا لا تعود إلى الوراء، حتى جاءت اللحظة الموعودة، ارتديت ملابسي، تأنقت كأني ذاهب لملاقاة معشوقتي، ركبت سيارة أجرة كنت أشك في أن سائقها يراقبني لكنه لم يكن يفعل فهو فقط مجرد معتوه ينظر إلى الخلف أكثر من نظره إلى الأمام، وقفت السيارة عند ناصية الشارع، نزلت منها وذهبت صوب المنزل الذي يقطن فيه يوسف، كانت الأجواء هادئة كالمعتاد، ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، كنت أشعر أن الهواء نفسه يترقب حدثًا ما، تخيلت أن المنازل كلها أعين تراقبني، وتعد خطواتي، صعدت إلى الطابق الصحيح، ونظرت في ساعتي لأتأكد من أنه الوقت المناسب للزيارة، راودني شعور بأني جزء من ماكينة عقل يوسف التي لا تكف عن الحركة، ربما هو الآن خلف الباب، يرمقني عبر العين السحرية، ينتظر أمرًا ما، يضع خطة كبرى ليس لي فيها سوى دور المشاهد.

طرقت الباب فلم يجب، انتظرت دقيقة كاملة مرت في ساعة يدي بطيئة ومملة، ثم طرقت الباب ثانية فلم يجب، حاولت أن أحافظ على هدوئي، طرقت الباب مرة ثالثة فلم يجب أحد، قمت بدق جرس الباب فلم يفتح أحد أيضًا، شعرت بأنه ربما الآن واقع في خطر محدق، فشخص دقيق مثله لا يتأخر أبدًا، طرقت الباب بعصبية حتى انفتح الباب أخيرًا وكانت لحظة الحقيقة بحق، لقد فاجأني ما رأيته، كان يوسف في منامته المنزلية، وشعره غير منتظم، رمقني بنظرة حادة وقال:

– غير معقول، لقد أفسدت طبق البيض المقلي بسببك، يمكنك أن تنتظر على الباب قليلًا لكن البيض له فرصة واحدة ليصبح مثاليًا في مذاقه!

لم أفهم فقلت:

– لدينا موعد.

كان مندهشًا بصدق وأجاب:

– حقًا؟

– نعم، فموعدنا اليوم بالتحديد.

حك رقبته، قال مستسلمًا:

– ادخل.

بالتأكيد كنت أشعر بخيبة الأمل، لكني حاولت أن أقنع نفسي بأنه لم ينسَ الموعد، بالتأكيد يحاول أن يمثل دورًا ما، بالمناسبة لقد

كانت الشقة مثيرة للدهشة، الأثاث قليل، لديه شتى أنواع السجاد، خاصة تلك البيضاء التي في الصالة بدت مميزة بنمط طباعة على شكل تنين أزرق اللون، أدخلني مباشرة صوب مكتبه فلم ألحظ جيدًا ما تحويه الشقة لكن فيها على الأرجح ثلاث غرف إضافة إلى غرفة المكتب، ومكتبه الخشبي لم يكن منظمًا كما تصورته، أعني أنه كان منظمًا لكن ليس بالدقة التي تخيلتها، سألني فجأة:

– هل تحب الليمون؟

قلت بينما أتابع تفاصيل المكتب:

– أجل.

ذهب ليحضر الليمون بينما تابعت ملاحظاتي حول المكان، لقد نسيت مرة أخرى أن أحمل مفكرة معي، لقد رأيت في فيلم أن البطل المغامر دائمًا ما يحمل مفكرة في جعبته ليدون ملاحظاته الهامة، على كل حال حاولت أن أحفظ كل شيء، خاصة الأشياء المميزة مثل اللوحة الزيتية لقرية ريفية فيما يبدو، وكانت اللوحة معلقة خلف كرسي المكتب وإلى جوار ساعة حائط دائرية، لها حواف صفراء لامعة مثل الذهب، جاء صوت يوسف من الداخل قائلًا:

– لقد تذكرت الآن، لقد طلبت منك بالفعل أن تزورني اليوم.

قلت مازحًا:

– ظننت أنك لا تنسى أبدًا.

– جميعنا نخطئ في توقعاتنا، من كان يظن أن بريطانيا ستكسب الحرب!

قلت وأنا أتفحص في لون قطعة السجاد الخضراء المنقطة بنقاط برتقالية على مسافات غير منتظمة:

– لا بد أنك كنت تؤمن بالطرف الخطأ.

في تلك اللحظة دخل من الباب وهو يحمل صينية فوقها كأسين من عصير الليمون:

– لا أؤمن بأحد طرفي نزاع فهذا لا يجدي نفعًا، المنطق المنتصر سيسود وساعتها لن تنفعني قناعاتي في شيء، سينهار كل ما أمنت به في تلك اللحظة التي يدخلون فيها البلد ويحصلون على كل ما يريدونه، وصدقني لا ينبغي أن يلومهم أحد، فمن حق المنتصر أن يحصل على الجائزة الكبرى، لكن دعك من كل هذا لدينا ما نقوم به الليلة.

– ما هو؟

– هذا سؤال جيد.

تناولنا المشروب، ثم ذهب يوسف إلى غرفته ليبدل ملابسه، ارتدى بدلة زرقاء لها قميص أبيض، ووضع في عروة قميصه دبوسًا أصفر له نفس شكل التنين المطبوع فوق قطعة السجاد في الصالة، ثم خرجنا من الشقة، ذهبت ناحية المصعد فأشار إليّ يوسف بألا أفعل ونطق:

– سننزل الدرج.

نزلنا بضع درجات ثم توقف يوسف، نظر عن يمينه وعن شماله، ثم

عاود النزول مرة أخرى لبعض درجات ثم توقف، تحسس جيب سترة البدلة ثم تنهد وهمس بصوت مبحوح:

– لقد نسيت دفتر مواعيدي في الأعلى.

ثم بدأ يترنح فكاد يسقط، أسند ظهره على الحائط واستعاد توازنه مرة أخرى، صعد إلى الشقة مرة أخرى ليحصل على دفتر مواعيده، أمضى دقائق ثلاث داخل الشقة قبل أن يخرج ونعاود نزولنا، كتب بضع ملاحظات داخل الدفتر وقبل أن نصل إلى مخرج العمارة قال:

– هل لاحظت أمرًا غريبًا في الشارع؟

– تقصد كتلك الليلة منذ أسبوعين؟

– نعم.

– لا.

سمع إجابتي ولم يهتم، نزلنا من المنزل وتحركنا صوب الناصية حيث كانت سيارة يوسف هناك، السيارة نفسها التي ركبنا في الليلة السابقة، في تلك اللحظة راودتني ذكريات مثيرة وددت لو أكررها، فبينما أمسح المكان بعيني كنت أبتسم كطفل ينتظر السيرك، لم أجد أثرًا لأحد يراقبنا، ولم أحاول سؤال يوسف حول وجهتنا من فرط حماستي وأيضًا حتى لا يعتبرني جبانًا، دخلنا السيارة وتحركنا بها، لم يبادلني يوسف حديثًا حول شيء محدد طوال الطريق، لكنه بدا لي مرهقًا، قاومت رغبة التدخين بصعوبة، قاد يوسف السيارة نحو حي الحسين، قام بوضع السيارة عند أول شارع يقع عند ناصيته مسجد لم أقرأ اسمه، ثم ترجلنا في الشوارع المتقاطعة حتى وصلنا

إلى مقهى كتب فوق لافتته "مقهى النزلاء"، لم أفهم الاسم على نحو مناسب، المقهى كان أشبه بمغارة، لأنه يقع في الطابق الأرضي من عمارة مكونة من طوابق ستة، وكانت أرضية المقهى منخفضة عن مستوى الشارع فكنت تنزل إليه بمقدار ربع متر حتى تلامس أرضيته المرصوفة بطوب بني داكن، اختار لنا يوسف مكانًا شاغرًا يقع جوار عامود رخامي مستدير، جلسنا هناك وطلب يوسف قهوة وطلبت مثله، طلب مني أن نلعب الدومينو، وكنت - من دون شك - أخشي أن أنافسه لما رأيته فيه من دقة ملاحظة، ولما توسمت من اتقاد ذكاء، وكنت مخطئ فبعد ربع الساعة من اللعب لم يكسبني ولو لمرة واحدة، وفجأة ظهر أمامنا رجل طويل القامة، أسمر البشرة وعريض الكتفين، وقال دون أن يجلس:

– يبدو أنكم تستمتعون.

استرق يوسف النظر إليه:

– التسلية مفيدة لإضاعة الوقت.

أخذ الرجل كرسيًا وجالسنا فسألت:

– هل تعرفنا؟

ابتسم بسخرية فظهرت شفتاه كأنهما أضخم من المعتاد، كان لهما لون أحمر كأنه يضع فوقهما أحمر شفاه:

– أعرف السيد يوسف، لكنه لا يعرفني بعد!

قال يوسف وهو ينظر في ساعة يده:

– هل أنت من قمت بطلب مقابلتي؟

تلفت الرجل حوله وقال بتوتر:

– نعم.

قالها بهدوء، فأشار إليه يوسف أن يكمل حديثه:

– في الحقيقة لست أنا من يريد لقاءك، أنا فقط حلقة وصل.

أخرج يوسف منديلًا من جيبه ومسح رأسه المتعرق بغزارة وقال:

– ومن الذي يريد مقابلتي؟

أخرج الرجل من جيبه مظروفًا أبيض لا كتابات عليه، وضعه مباشرة أمامنا على الطاولة وتابع:

– رجل مهم، كل شيء مكتوب هنا في المظروف.

– أخبرني بالتفاصيل؟ لكن عرفني بنفسك أولًا؟

أخرج الرجل سيجارة من جيبه، ثم أشعلها، طار الدخان إلى الأعلى في سحابات متقطعة وفي النهاية عاود الرجل الحديث:

– أنا فاروق، مساعد السيد إبراهيم الزغبي، والسيد لديه مشكلة كبرى.

– ماذا؟

– لا أعرف، لكنه أخبرني أنها مشكلة أكبر من قدرته، ودعني أخبرك أمرًا، السيد إبراهيم الزغبي لا تعوزه القدرة عن شيء، الرجل واسع الحيلة، شيخ في العمر فقط لكن في المظهر يبدو كالشباب،

لديه نفوذ، مال، وقد حيزت له ملذات الدنيا، باختصار القضية التي سيكلفك بها هي مهمة صعبة للغاية.

لم يظهر على يوسف فهمي أنه تحمس، أمسك بالمظروف وقلبه بين يديه، شم رائحته ثم قال:

– هل ترى أنها مهمة صعبة لأن السيد يوسف لا يقدر على حلها، أم لأنك تحسب نفسك الوحيد القادر على حلها يا أستاذ فاروق؟

ضحك فظهر الناب النحاسي في فمه، ثم عاود القول:

– السيد إبراهيم يعتبرني ذراعه الأيمن، لكنه أمر يفوق قدرتي.

– تعرف القليل عن تلك المهمة، أخبرني.

– المال في المظروف يكفي للإجابة عن أسئلتك.

تنفس يوسف الهواء كأنه أثقل من الحياة:

– اللقاء انتهى، سأفكر.

– متأسف، من فضلك اجلس.

جلس يوسف مرة أخرى وبدا أكثر عصبية:

– تكلم بوضوح يا سيد فاروق.

اقترب الرجل من يوسف وهمس في أذنه بكلمات لم أستبن منها حرفًا، ثم تركنا الرجل وذهب في حال سبيله، وبعد أن غادر أكملنا لعب الدومينو، وقد أسفرت النتيجة في كل مرة عن فوزي، انتهينا من اللعب ودفع يوسف الحساب وأمسك المظروف الأبيض، نظر

يوسف في ساعته وأنا أتابع صورتي في المرآة على الحائط، خرجنا بهدوء تام كما دخلنا، ثم ذهبنا إلى السيارة عند الناصية، وفوق الزجاج الأمامي للسيارة ورقة صغيرة، أمسك يوسف بالورقة ثم نظر مرة حول السيارة، قرأ الورقة ثم طواها، وبعدها وضعها في جيبه وقال:

– فلندخل السيارة.

الفضول لم يكن صفة راسخة في شخصيتي، فلست كالأطفال أسأل دائمًا، لكن مع يوسف فقد شعرت أني بالفعل كالأطفال، فهم صغار دائمًا في نظر الآخرين، فالأطفال دائمًا أقل من أن يعرفوا الحقيقة، وكان لدى يوسف طريقة في الحديث تمنعك من الشك فيه، كان يجبرني دائمًا على الصمت، لم أكبح نفسي هذه المرة وقلت:

– أنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق.

نظر يوسف تجاهي متظاهرًا بالجهل:

– ماذا تقصد؟

شعرت في تلك اللحظة أن هدوءه الزائد لا يحتمل:

– لا أفهم كل شيء، لقد قلت إنك قبلتني للعمل لديك، لكنك لم تخبرني بطبيعة عملنا من الأساس، لم تخبرني أيضًا حول ما جرى في أول لقاء بيننا، تلك المغامرة التي دخلت فيها مجبرًا وخرجت منها جاهلًا بما جرى، وأيضًا لا أعرف مكسبي من كل هذا، أنا مدرك أن العمل معك خطير، لكن بأي شكل؟

سكت يوسف فجأة وعاد إلى النظر في ساعته مرة أخرى فعاودته

قائلًا:

– أخبرني.

أدام صمته، ثم أعطاني الورقة التي سبق أن وجدناها على الزجاج الأمامي للسيارة وبعدها نظر في ساعته وقال:

– اقرأ الورقة جيدًا أولًا، نحن متأخرون على موعد.

قرأت الورقة فوجدت رقم هاتف، مكتوب أسفله لا تدعني أنتظر كثيرًا، فقط سلمني ما لديك وستحصل على ما تريد، نظرت ليوسف فأجاب دون سؤال:

– هذا هو الرجل الذي كان يراقبني، لقد سئم المراقبة وفي النهاية قرر أن يدفع المقابل المناسب لما يريد.

– وما هو الشيء الذي تمتلكه؟

– هذا أمر مختلف، لكن ما عليك معرفته هو أنني تاجر من نوع ما، محقق خاص في القضايا التي يعجز عنها الجميع.

ثم أشعل سيجارًا وأضاف:

– ولا أقصد القضايا العادية فقط، فهناك أشياء كثيرة قد تبدو لك عادية لكنها تعني الكثير، القضايا الغامضة، الاختفاء المفاجئ لشخص ما، اقتحام منزل دون سرقته، وكل تلك الأشياء التي يعجز الناس عن فهمها.

بدا كلامه مبهمًا أكثر، لكنه بدا صادقًا وهذا على الأقل قد فتح أبواب الثقة بيننا، تظاهرت بالفهم، فأجاب:

– أنت لا تفهم، لكنك شخص ذكي، ستفهم عما قريب، وبالنسبة إلى المقابل فستحصل على راتب شهري مناسب نظير أعمالك معي، ولن أخدعك ما دمت تعمل معي، هل أنت موافق؟

لم أعرف تحديدًا ما ينبغي عليّ أن أفعل، لم أسأل عن المقابل المادي بشكل محدد أكبر، لم أسأل عن طبيعة الأعمال بشكل أكبر، ربما كنت مغفلًا في تلك اللحظة، وربما لم أكن، لكن ما أستطيع تأكيده هو ثقتي التي حظي بها السيد يوسف فهمي، واقتناعي التام بكلامه:

– اتفقنا.

لم يبتسم السيد يوسف فهمي، لكنه بدا مرتاحًا - على الأقل بالنسبة لي - قاد السيارة وتحرك بنا إلى ذلك المكان الذي يقول إن لدينا فيه عملًا، وازداد العرق على جبينه، وفي المجمل فقد ظهر عليه الإرهاق بشكل كامل، فقلت:

– فلنذهب إلى المنزل، يمكنك أن تؤجل اللقاء.

بدا مهتما بأكثر مما توقعت، قال بنبرته العادية التي تشبه في ثباتها دقات الأصابع فوق الآلة الكاتبة.

– غير ممكن، هو موعد لا يمكن تأجيله، مهمة يجب أن تتم اليوم.

دعني أخبركم الآن أني لم أتوقع ما جرى تاليًا، كان مزيجًا من السخافة والشعور التام بالجهل، فنحن لم نذهب إلى مغامرة أخرى للأسف، فنحن منذ ربع ساعة ونحن هنا في جنينة الأسماك، حتى إننا لا نتمشى، بل نحن أمام قفص نتابع حركات الأسماك الذهبية

اللعينة وهي تمارس هوايتها اليومية في العوم هنا، لم أفهم لماذا يوسف مهتم بالأسماك، لكن من دون إهانة فأنا لا أحسبه شخص يهتم للأسماك بهذا القدر، هو رجل يحب المغامرات كما يبدو، فلماذا بحق السماء نجلس هنا أمام حوض الأسماك الذهبية بلا حركة، قلت محاولًا ألا أصبح فظًا:

– متى سيجيء الرجل الذي ننتظره؟

قال وهو لا يحرك عينه عن حوض الأسماك:

– من؟

كانت الأسماك تتحرك برتابة فجعلتني أشعر بالغيظ، اقتربت سمكة كبيرة من الحوض، وأقسم إنها نظرت ناحيتي بعنف، انتظرت خمس دقائق أخرى ثم عاودت السؤال مرة أخرى على مسامع يوسف:

– الرجل الذي تنتظره، أم أنها امرأة؟

أجابني بثبات:

– لا رجل ولا امرأة.

ساد الصمت بيننا لدقيقة، وشعرت بالذهول حقًا، لم أفهم إجابته جيدًا ربما، أم أنه لم يثق بي بالفعل، سألته مرة أخرى لكن بحدة أكثر:

– الموعد؟

نظر يوسف في ساعته وضحك، ضحك بطريقة ساخرة، كأنه يسخر من الوقت، ويسخر مني، ويسخر من حوض الأسماك عديم النفع الذي أضعنا أمامه وقتنا عبثًا، رفع يوسف يديه في حركة تعني

أنه لا يعرف، ثم قال:

– لقد جئنا في الموعد المحدد، لكن يبدو أن اللقاء لن يتم!

ثم وقف ونظر ناحية السمكات الذهبيات وهن يتحركن فيما يشبه رقصة:

– هيا، ماذا بعد؟

ثم صدم حوض السمك بقبضته لكن دون أن يكسره:

– أين الدليل، لم يحضر أحد إلى هنا؟

أشهر تذكرة جنينة الأسماك وجعلها ملتصقة بحوض الأسماك:

– التذكرة معي فأين الخطأ؟

انفعل بشكل لا يتناسب مع هدوءه، ثم تحرك ناحيتي، سحبني من ذراعي وخرجنا من الجنينة، ركبنا السيارة ثم أوصلني إلى منزلي، أخبرني بأنه يريد العودة إلى المنزل من أجل الحصول على بعض الراحة، وافقت لأنه بدا مرهقًا بأكثر مما يقدر على إخفاءه، نزلت من السيارة وقبل افتراقنا سألته:

– ماذا حدث في جنينة الأسماك؟

لم يجبني، ظهرت عليه علامات عدم الراحة، تنهد وقال:

– كان لدينا مهمة هناك، لكنها لم تتم.

– لماذا؟

– لا أعرف لماذا، لكن بالتأكيد سنعود إلى هناك في الأسبوع المقبل

وإلا ستكون هناك مشكلة كبرى.

– وماذا سنفعل في قضية السيد إبراهيم؟

أخرج يوسف دفتر مواعيده، نظر فيه ثم قال:

– لاقني في المنزل بعد غد، سنتناقش في عدة قضايا قبل أن أختار متابعة إحداها، ومن ضمنها قضية السيد إبراهيم.

– لم تبدُ مهتمًا في البداية، فماذا تغير؟

– تقصد ماذا قال لي في أذني، قال إن الأمر سيثير حماستي، لكني لست متحمسًا لها على كل حال.

وبعدها افترقنا، ثم ذهبت إليه بعد غد، طرقت الباب أكثر من مرة ففتح الباب وقال بنفاد صبر:

– غير معقول، لقد احترق قرص البيض مرة أخرى بسببك، ادخل يا أستاذ أحمد، يبدو أن الطعام لا يحبك.

كان في منامته المنزلية البيضاء مثل الأوراق الخاوية، أغلق الباب من خلفي ثم قادني إلى غرفة المكتب وكانت الأوراق متناثرة على الأرضية كنجوم مجرة ضائعة، وضع يده في جعبته ثم أخرجها فارغة كأنه يبحث عن شيء لم يجده، ثم سألني بسرعة:

– هل تجيد تحضير البطاطس المقلية؟

أشرت إليه بعلامة النفي، فأجاب بخيبة أمل:

– بالتأكيد، هل تعرف أنا أحب الطهي لكننا غير متوافقين تمامًا، لم أستطع حتى يومنا هذا أن أقوم بتحضير البطاطس المقلية بصورة

ناضجة تمامًا، وهل تعرف، أحيانًا أشعر بأن المقلاة قد ألقيت عليها لعنة ما، فأنا أستخدمها منذ زمن ولم أنجح معها قط!

– فلتغيرها.

رمقني بنظرة ساذجة ثم قال:

– وهل تجيد تحضير البيض المقلي؟

– في الحقيقة أنا لا أستخدم الموقد إلا نادرًا، لا أنصحك أن تتناول الطعام من يدي.

صرخ كطفل خسر في لعبة ثم أشار إليّ بالجلوس:

– اجلس، سأذهب لتحضير الطعام، ولا تعبث في شيء.

جلست على كرسي خشبي لكنه في حالة ممتازة، قضيت بعض الوقت مدققًا في غرفة المكتب، الأوراق الملقاة على الأرضية تبدو ذات علاقة ببعضها، على الرغم من عدم فهمي لخط الكتابة المتشابك كأن الكاتب كانت تطارده الوطاويط وهو يخطها على عجل، أما المكتب فيبدو نظيفًا، فوقه أوراق مختلفة الأغراض، أوراق عليها ملاحظات مختلفة، ويوجد تمثال صغير لقزم على ما يبدو، وهناك أيضًا صندوق خشبي في حجم قبضة اليد، تخرج منه ورقتان بدتا مألوفتين، أجرت الورقتين وقرأتهما لأعرف أنهما تذكرتين لزيارة جنينة الأسماك، فتحت الصندوق لأجد تذاكر جنينة الأسماك مكدسة في الداخل، أخرجت واحدة أخرى فتأكدت ملاحظتي حول الأمر بأن الصندوق ممتلئ بتلك التذاكر فقط، سمعت وقع أقدام فأغلقت الصندوق مرة أخرى وجلست على الكرسي متأملا الخزانة الصغيرة

الواقعة على يسار المكتب، جاء يوسف وطلب مني أن أخرج إلى الصالة، سألني أن أجهز الطاولة المستطيلة الواقعة في الجانب البعيد من الصالة والمجاورة لنافذة ضيقة إلى حد ما، عندما صار كل شيء جاهز لتناول الطعام، وبينما البطاطس المقلية تتصاعد الأبخرة منها دق أحدهم الباب، فتح يوسف فهمي لأجد أن الزائر هو الشخص القصير الذي دلني سابقًا إلى يوسف فهمي، كان يتنفس بصعوبة، دلف مباشرة إلى الداخل وجلس على كرسي خشبي يقع على الجانب المواجه لموقعي على طاولة الطعام، كان هناك كوب زجاجي وزجاجة ما، فقدح من الماء ما تيسر له، وكان تواقًا إلى ذلك لدرجة جعلت الماء ينساب فوق شفتيه ويسقط على شعيرات لحيته الصغيرة، بدا الجو متوترًا، سأله يوسف:

– ماذا يحدث يا سمير؟

– جريمة قتل.

في خلال دقائق كنا قد جلسنا في سيارة يوسف فهمي وقد بدل ملابسه بالطبع من أجل تلك الحالة الطارئة، كان سمير - الذي عرفت اسمه أخيرًا - يجلس في المقعد الأمامي المجاور ليوسف بينما أنا في المقعد الخلفي أفكر في أنني ربما ملعون في أمر الطعام هذا، وصرت أندب حظي العاثر الذي منعني من التهام البطاطس والبيض المقلي، قبل أن ننطلق بالسيارة كان هناك مراهقان يتابعاننا بأعينهما، كانا ولدان طويلا القامة، لهما بشرة سمراء، ولكل واحد منهما شعر أسود ناعم، ولهما نفس الأنف الطويل والفم الضيق والشفتين الدقيقين، لم أعرهما انتباها تامًا، بدا يوسف وهو يقود السيارة

متحمسًا بأكثر مما يمكن وصفه، بينما سمير الذي يرتدي نفس زيه السابق عيناه كانتا تشتعلان بالخوف وهو يعطي يوسف وصف الطريق، ربما تلك الجريمة مرعبة، لكن ذلك سمير بالتأكيد يبالغ في رد فعله، ولماذا من الأساس جاء إلى يوسف بتلك القضية المفاجئة، ومن الأساس كيف سيتسنى لنا معاينة جريمة قتل بينما الشرطة تزاول تحقيقاتها، تلك الأسئلة التي ظلت تراودني لم تدم طويلًا، فسرعان ما سأل يوسف:

– من طلب زيارتي لمسرح الجريمة؟

– السيد فتحي غزلان بنفسه.

لقد سمعت اسم السيد فتحي غزلان سابقًا، هو عضو برلماني على ما أظن في نحو الخمسين من العمر، وقد رشح عدة مرات لتولي مناصب وزارية رفيعة لكن في اللحظة الأخيرة يتم وضع اسم آخر مكانه بشكل مثير للدهشة، سألت بتلقائية:

– السيد فتحي غزلان يستطيع أن يجعلنا نلقي نظرة على مسرح الجريمة؟

ابتسم يوسف فهمي، وانبرى سمير للإجابة:

– السيد فتحي غزلان يستطيع أن يجعلنا نقوم بالكثير من الأشياء عن طريق علاقاته، لكنه ليس مفتاحًا سحريًا يفتح كل الأبواب المغلقة.

ثم عاد إلى النظر ناحية يوسف فهمي وأكمل:

– لكن هذه المرة يبدو قلقًا، فعادةً لا يتصل بنا في القضايا العادية،

لكنه يريد أن يعرفنا على المحقق الجديد الذي تم تعيينه في منطقة مصر القديمة.

من خلال كلمات سمير تبينت وجهتنا، لكن لم أفهم ما يقصده بكلمة -القضايا العادية - فما هي القضايا العادية، وما الفارق بينها وبين الأخرى غير العادية، سألت مستوضحًا:

– هل نحن مختصون في التحقيقات؟

– لا.

قالها يوسف فهمي قاطعًا، وأكمل بعدها:

– نحن نقوم بكل ما يطلب منا، والسيد فتحي لديه طلب سنقوم بتنفيذه، نحن لا نسأل الكثير من الأسئلة ما دام أن الرجل لم يبدِ اهتمامًا بالإجابة، هو يريدني أن ألقي نظرة على مسرح جريمة قتل غريبة وأنا سأفعل هذا، أما عن هدفه من وراء الأمر فهذا شأن لا يعنيني

بدا يوسف حاسمًا في كلماته كما عهدته في المقابلة الأولى معه، وأيضا بدا مختلفًا عن تلك الشخصية التي يكون عليها معي في منزله عندما يشرع في تجهيز الطعام، وفي تلك اللحظة أدركت أنه شخصية لا يمكن فهمها على نحو كامل، ولم أجهد نفسي في المحاولة. في خلال وقت قصير كنا قد بلغنا مسجد السيدة عائشة، وكان الأمن يطوق المسجد بصورة غير مسبوقة، ساورتني شكوك بأن الجريمة وقعت داخل المسجد، العساكر منعونًا من الاقتراب من المسجد، والناس كان يتحلقون حوله في تكدس من أجل رؤية ما

يجري، عربات الشرطة تقف أمام بوابة المسجد، لم ننتظر طويلًا حتى خرجت رجال الشرطة من داخله بزيهم الرسمي، وفي أيديهم متهم قصير القامة، يبدو أنه كان قد هرب منهم في مطاردة أو أنه كان مختبئ في الداخل، فورما شاهد الحشد الشرطة وهي تمسك بالرجل انطلقوا في عاصفة من التصفيق كأنه عرض مسرحي، همس يوسف لسمير:

– أين وقعت الجريمة؟

– بالقرب من هنا.

التفت يوسف إلى الحشد، اخترقه ليصل إلى الصفوف الأمامية التي كانت ستبدأ في التشتت، ثم عاد إلينا بعد دقيقة أو اثنتين، قمنا بركن السيارة بالقرب من كشك محلي، ثم ترجلنا في الحواري من أجل الوصول إلى العمارة التي وقعت فيها الجريمة، كانت الشوارع واسعة في البداية، ثم بدأت تضيق كلما أوغلنا في السير، في النهاية وصلنا إلى عمارة متهالكة الهيئة، متساقطة الطلاء، تتكون من أربعة طوابق، كان هناك شاويش أمام الباب فسأله يوسف أن يقابل الشرطي المسئول عن معاينة الموقع، لم يكن الشرطي المسئول في مسرح الجريمة، فقد قاموا بمعاينة الموقع قبل وصولنا فيما يبدو، ولم يسمح لنا الشاويش بالدخول إلى العمارة حتى، وهو أمر لو سألتني لقلت أنه مدهش وغريب، في العادة لا يسمح لك بالدخول إلى الشقة التي ارتكبت الجريمة فيها، لكن ألا يسمح لنا بالدخول إلى المبني من الأساس فهو أمر بالغ التطرف في الإجراء، شكره يوسف بلطف بالطبع لم نعد أدراجنا، بحثنا عن مقهى قريب ووجدنا

واحد على بعد شارعين من العمارة، وكان مقهى شعبيًا يتخذ ناصية الشارع مستقرًا لطاولاته وكراسيه، طلبنا أكواب الشاي ولم يبدُ على يوسف أنه تأثر بكلام الشاويش، كان هادئًا كعادته، لكن صامت كقلب لا يفرج عن أسراره، قال سمير له:

– هل أتحدث مع السيد فتحي عبر الهاتف لأعلمه بتفاصيل ما جرى؟

امتعض يوسف فسكت سمير، وفي تلك الأثناء لم أعرف ما يريد القيام به، فإذا ما كان لن يتحدث مع السيد فتحي كما يبدو، فكيف سيتصرف الآن، انتظر يوسف أن يأتي صبي المقهى وسأله عما جرى اليوم من أحداث في الحارة فلم يجبه لأنه خشي أننا رجال شرطة فيما يبدو لكن رجلًا مسنًا كان يجلس جوارنا قال وهو ينفس هواء النرجيلة:

– يبدو أنكم تبحثون عن شيء ما؟

أجابه يوسف بهدوء:

– كنا نمر بالقرب من مسجد السيدة عائشة ورأينا زحامًا، فتساءلنا عما يجري فقط.

كان الرجل يرتدي جلبابًا رمادي اللون، فمدد يده فوق بطنه الذي بدا أنها تؤلمه، ثم كتم نفسًا من النرجيلة وأجاب بعدها:

– لا أنصحك أن تسأل عما جرى، فلن يجيبك أحد!

قالها وهو لا ينظر ناحيتنا، فقام يوسف من مكانه وجلس جواره على كرسي وسأل:

– لماذا؟

سحب الرجل نفسًا آخر ثم قال:

– لا أحد يحب أن يتحدث عن العفاريت!

ضحك يوسف باستنكار، فلم يرد الرجل بضحكة، بل كان كجبل ثابت على عهده، سأله يوسف:

– لم أفهم؟

– هل رأيت الشرطة في مسجد السيدة وهي تلقي القبض على الرجل؟

– نعم، كان قصيرًا ولم تتضح معالمه من بعيد، هل هو مجرم؟

بدت الرياح باردة أكثر من العادة عندما أجاب الرجل:

– يقال إنه المشتبه فيه، اسمه عباس حامد، لكن معظم الناس لا تصدق، فما حدث لا يقدر بشر على فعله، في الواقع لقد بدأ كل شيء في العمارة الواقعة في شارع زيتون، عندما خرج عباس من منزله راكضًا ويداه مغطاتان بالدماء، يضحك مثل الممسوس، ثم ركض وهو يصرخ حتى وصل إلى المسجد، وهناك لم يعرف أحد ما جرى له حتى وصلت الشرطة:

– أين تقع تلك العمارة؟

– لا أنصحك بالذهاب إلى هناك، فلم يدخلها أحد إلا القليل، وقد غادرها أهلها ومنعت الشرطة الدخول إلى هناك ومنعتهم من الحديث.

لا يمكن الوصول أبدًا إلى رد فعل يتخذه يوسف، فهو رجل المفاجآت، ولا تظهر عليه علامات الدهشة إلا عندما يبدأ في تصنعها مثلما يفعل الآن، سأل يوسف بعد برهة:

– من غير المعقول أن لا أحد شاهد ما في الداخل؟

نظر الرجل خلفه كأنه بدأ يخاف من أسئلة يوسف فتابع يوسف:

– أقصد فقط أنه دائمًا هناك أناس متطفلون في كل مكان، فالحكاية تبدو مثيرة.

سكت الشيخ قليلًا، أخذ نفسًا من النرجيلة وأخرجه على مهل، ثم قال:

– متأسف يا أستاذ لكن لا أعرف شيء آخر.

بدأت الشكوك تأكل رأسي حول ما جرى هناك، أعجبت بالطريقة التي يستخدمها يوسف من أجل الوصول إلى المعلومات التي يريدها، لكن في النهاية لم نستفد كثيرًا بما عرفنا، وعلينا على الأقل أن نعرف ماذا يوجد داخل العمارة. جلسنا قليلًا في المقهى حتى دقت الساعة التاسعة، لم تحمل الريح الأخبار لنا، ولم نتمكن من استدراج مزيد من المعلومات، بدأ رواد المقهى ينظرون لنا بريبة، وبينما نحن غارقون في زخم الأحداث قد رأيت أحد الشابين المراهقين الذين رأيتهما قرب منزل يوسف فهمي، هو يقف عند ناصية الشارع ويراقبنا من بعيد كقط يطارد فأر، اقتربت من أذن يوسف فهمي وهمست له:

– يوجد من يراقبنا.

لكن يوسف لم تشتعل عنده حساسية الشك هذه المرة كأنه شفي من هواجسه من دون سابق إنذار، نظر ناحية الفتى الذي اختفى من مكانه كحبة ملح في بحر، ثم قال وهو يضحك:

– لا تخف منه.

كنا قد أنهينا احتساء الشاي فتركنا المقهى، أحسست بأن نظرات صبي المقهى تأكلنا وهو يأخذ الحساب، وكان له أذنان مثل القارض فكلما نظرنا إليه كاد سمير ينطلق في الضحك والسخرية لكن يوسف كان يحدج سمير بنظرة باردة تجعله يبتلع الكلمات فورًا، غادرنا المقهى ونحن نتبع خطى يوسف فهمي دون كلام، كنا نقترب من الشارع المجاور لشارع زيتون، نظر يوسف ناحية سمير وغمز له ثم أمسك كتفي بقوة وهمس في أذني:

– اتبعني ولا تهمس.

كنا نمشي واحدًا تلو الآخر، نتحرك كسرب واحد لكن دون قيادة وقطيع، في البداية تحرك يوسف عبر الشارع كأنه يحفظه، وبثقة نمر يبصر فريسته، ثم صعد منزلًا، لم أكن أعرف ساعتها ما يجب، ترددت في أعماقي في إتباع يوسف، ثم صعد سمير بعد يوسف إلى نفس العمارة المكونة من خمسة طوابق، خفت أن أجبن فيعفيني يوسف عن العمل معه، في الكثير من القصص يمكنك أن تقرأ أن البطل ينساق خلف دافع عجيب يجتاح خلاياه، شعرت ساعتها بلسعة برد في عظامي، وبدأ الناس من حولي يتحركون بصورة أبطأ، صار كل شيء كأنه عرض مسرحي وأنني البطل الذي تنظر ناحيته أعين المتفرجين، أحسست نفسي داخل صالة السينما لكن لأول

مرة داخل شاشة العرض، تبعتهما ودلفت إلى العمارة وقلبي يمكن سماع دقاته من الإسكندرية، وجدتهما على الدرج أمامي، يلبس كل واحد منهما قفازًا جلديًا في يده، ولم يكن عندي واحد فشعرت بالعار من جلدي، صعدنا إلى الأعلى يتقدمنا يوسف، كانت درجات السلم حجرية ولم يكن لوقع أقدامنا عليها صوتًا، كنت أسمع أنفاسي وهي تخرج من أنفي، بينما تختلط مع همسات تتحرك تجاهنا من أبواب المنازل، تحركنا حتى وصلنا إلى السطوح، وكان فارغًا من كل شيء إلا عش صغير يبدو أنه لتربية الدواجن لكنه كان فارغا، كانت العمارة ملاصقة للعمارة الأخرى في حارة زيتون، فنزلنا من سطح إلى الآخر، فكنا في العمارة المقصودة.

جعلنا يوسف ننتظر على السطح حتى يقوم بمعاينة الوضع، نزل عبر سلم السطح إلى الأسفل وغاب عنا لمدة عشر دقائق كنت خلالها أتلفت حولي مثل لص فقد الذاكرة، بينما سمير ينظر إلى السماء التي بدت متألقة في زينتها من النجوم، صعد يوسف إلينا وهمس لا يوجد عسكري أمام أبواب الشقق، يبدو الوضع هادئًا تمامًا، سألته بصوت مبحوح:

– كيف سنعرف الشقة الذي تمت فيه الجريمة؟

سكت يوسف مليًا ثم أجاب وكأنه يخفى أمرًا:

– لقد عرفت الشقة فهي تظهر نفسها، هي في الطابق الثالث، سندلف عبر الباب فلقد قمت بفتحه، لكن حاذروا، فالرائحة في الأسفل لا تطاق، وأيضًا ما ستشاهدونه ربما يصدمكم قليلًا، خاصة أنت يا أحمد، تحلوا بالشجاعة.

نزلنا من أعلى والخوف يلتهمني بلا هوادة، كان الدرج ضيقًا بحيث يلتصق الرجلان إذا مرا منه معًا، في كل طابق كانت توجد لمبة معلقة في السقف لتنشر نورها البرتقالي الباهت على كل شيء، كلما نزلنا كانت الرائحة أقوى، وكانت تشبه رائحة البيض الفاسد، قال يوسف ونحن نخطو على الدرجات الحجرية كمن يخطو على قشر البيض:

– هل تعرفون، في الحقيقة أنا لم أفتح الباب، بل وجدته مفتوحا، وهل تعرفون السبب؟

تعجبت من ترك الشرطة للباب مفتوحًا بعد المعاينة، لم نستطع مقاومة الرائحة فأخرج يوسف ثلاثة مناديل ليقوم كل واحد بوقاية أنفه من شراسة الرائحة، في تلك الأثناء قد اقتربنا من الباب للغاية، فاجأني الذباب المتطاير من الداخل إلى الخارج باندفاع كأنه الهروب من الجحيم، شعرت بحرارة تحرق الهواء، تكاثف الذباب أمام الباب كأنه جسد سمكة طائرة، ثم تشكلوا كأنهم حلقة عين لعملاق من العدم، نظرت ناحية يوسف الذي تقدمنا في النزول، أرسل نظره إلى الداخل ثم أعاده ناحيتنا وهمس:

– يبدو أن الشرطة لم تعاين الموقع بعد، فتحضروا لمعاينة الجثث.

في تلك اللحظة أصبحت مخاوفي في حجم الجبال، وقف ثلاثتنا أمام الباب ونحن نضغط على أنوفنا لنكافح من أجل المواصلة، باب الشقة الخشبي مفتوحًا كما ذكر يوسف، والصالة مضيئة بفعل كشافات يدوية ملقاة على الأرضية فتوقعت أنها للشرطة، دلفنا وما شعرت به أنني أدخل إلى كابوس، الحشرات تتكاثف في المكان،

النمل يتحرك في جماعات نشطة ناحية بقع في الأرضية لا أعرف طبيعتها، البعوض يحوم حول أجسادنا ويغزو الحيطان بل أقسم إن بعض من جماعاته بدت لو أنها تخرج من الحجر أو تنبت من العدم نفسه، بدت الأرضية نفسها لزجة كمستنقع، كافحنا وسط الإضاءة الخافتة لنتجاوز الصالة، وفي طريقنا ناحية غرفة من اثنتين تحويهما الشقة شاهدنا رسومات بالألوان السوداء على الحيطان لوحوش خرافية، جسدها ضخم ولا تفاصيل فيها إلا يدين وأسنان حادة، لطالما خطرت في بالنا تلك الرسومات السريالية في صغرنا، فهي تعبر عن الخوف البشري متجسد في وحش مجهول لا هيئة محددة له، كائنات ضخمة تشبه البشر وكائن ضخم لونه له جناحين مثل حشرة وبطن ضخم للغاية، تلك الكائنات الغريبة هي ذلك الخيال الطفولي السريالي الذي يشع من كوابيسنا ويتغذى على خوفنا البشري الدائم، وفي العادة يتجسد خوفنا على هيئة تلك الكيانات التي ندعوها بأسماء فخمة مثل الغول، والعو، وغيرها، شردت كطفل في أفكاري فقرصني يوسف ليحررني من سطوة الموقف، تلمسنا طريقنا للغرفة الأولى التي كان بابها مفتوحًا، كان فيها مصباح مضيء في آخر قد ألقاه أحدهم على ما يبدو، كدت أصرخ من الفزع عندما شاهدت ما بداخل الغرفة، فحشرت يدي في فمي حتى لا أصرخ، والحموضة قد بلغت حلقي وقتها فتقيأت على الأرضية مرغمًا، كدت أقع على الأرضية مذعورًا مما رأيت فأمسك سمير بيدي وقال:

– لقد بدأت للتو فلا تذعر.

كانت الحجرة دموية اللون، تحوي مقعد واحد وخزانة ملابس

منزوعة الباب، أول ما وقعت عيناي عليه كانت أحشاء جثة تتدلى خارج بطنها، الجثة لامرأة سمينة ناصعة البياض، رأسها منفصل عن جسدها وقد وضع فوق مقعد خشبي، عينا الرأس جاحظتين ومنتفختين كأنها بلورة خارج صدفتها، والشفتان نزعتا فبقي اللحم من أسفلهما فقط، وكانت هذه الرأس هي أول ما وقعت عليه عيناي في الغرفة، عندما بدأت أستعيد قواي كان يوسف قد كتم أنفه بمنديل قماشي وتجاوز الدماء المتجلطة على الأرضية بصعوبة بالغة، عاين الحيطان التي كتب عليها بالدماء "احضروا هنا"، عاودت النظر في الأرضية لألحظ جثة عارية أخرى، هذه المرة لرجل كما يبدو، وكانت أصابع أقدامه قد نزعت كلها، ومرسوم على بدنه علامات بالدماء هي مزيج من دوائر ومثلثات متقاطعة، كانت العناكب الصغيرة في حجم العلكة تجري على الحيطان كأنها تحتفل بالعيد، وكان السقف قد تلطخ بالسواد، كأنها أدخنة السيارات والمصانع ترسم فوقه بقع متجاورة، وقشرة الطلاء قد سقطت عن الحائط المجاور للخزانة الخاوية من الملابس إلا بضع قطع من الملابس النسائية، جلباب منزلي، قميص نوم، منامة، وفستان قصير. في تلك الأثناء كانت أضواء البطاريات تخبو وتهزل، بحث يوسف عن ذر الإضاءة وضغطه فتلونت الغرفة بلون أبيض تمامًا، أردت أشعل مصباح الصالة التي كان غالبيتها غير متضح الملامح لأنها كانت مضاءة ببطارية واحدة صغيرة تلتهما الظلمة من كل حدب وصوب. بحثت عن ذر الإضاءة عبثًا وقلت لسمير أن يساعدني فوبخني بصوت خفيض ونبهني بألا أشعل الإضاءة حتى لا ينفضح وجودنا فشعرت بالسذاجة والخجل من نفسي.

تسود أقاويل إن الجحيم هو المكان الذي سيذهب إليه الأشرار بعد الموت، تلك هي القناعات التي لدينا عن طبيعة الحياة بعد الموت، لكن ماذا عمن عاشوا جحيمًا كهذا، الجثتان كانتا مخضبتين بالدماء، منزوعي بعض الأطراف، هناك أكياس بلاستيكية تحوي عين جثة الرجل، وقد وضعت أصابع أقدامه في كيس آخر، وبينما أكافح رغبتي في معاودة التقيؤ، أمسكني سمير قبل أن أخطو داخل الدماء، فقد كانت قدمي ستقع داخل بقعة من الدم المتجلط حديثًا، وبخني بشدة وجذبني من يدي لأبتعد عن الحجرة، تراجعت خطوات إلى الخلف فاصطدمت بباب الغرفة المقابلة، أعصابي لم تخدمني، تخلت عني الشجاعة فجلست على الأرضية الدافئة واللزجة فلم أبالِ أين أجلس، تابعت يوسف وهو يرسل النظرات في كل مكان، وشاهدت أنا الحيطان بنظرة أخرى فقد بدت كأنها قد احترقت بينما لا توجد آثار حريق في المكان، كان أمامي مباشرة نافذة مغلقة بمزلاج، تقع النافذة خلف الكرسي الموضوع فوقه رأس السيدة تمامًا، وبارتفاع أقل من متر ونصف.

لاحظت سمير من بعيد وهو يعاين الحائط المكتوب فوقه بالدماء كلمات مبهمة، بأحرف عربية لكنها لا تؤتي معنى، وعلى الأرضية أوراق بيضاء مكتوب عليها كلمات بخط يد واحد، هذا ما لاحظه سمير وأخبرني به، أشار إلى يوسف الذي كان يمسك بأحبال خشنة الملمس، ملتفة على هيئة عقد معقودة، ذهب إلى الحائط وقام بلمسه أولًا، ثم بشمه، أحسست بمعدتي تتقلص، وشعرت بمزيد من السخونة في الهواء، أسقطت بعوضة كانت تمص الدم من أنفي، نظر يوسف عبر النافذة المفتوحة وكانت لا تطل على الشارع، بل كانت

للتهوية لأنها تنتهي أمامنا بحائط، غاب يوسف عن عيناي فوقفت لأتابع ما يفعله فوجدته يفتش في الخزانة بعناية وإصرار، ثم وجد حقيبة يد نسائية لونها أسود، قلبها ليسقط كل ما فيها داخل الخزانة، سقطت أقراط صغيرة على الأرضية محدثة نقرًا خفيفًا ثم استقرت في بقعة دماء سدت طريقها نحو جسد المرأة، وكانت هناك أوراق وحافظة نقود، ومظروف أبيض، فتحه يوسف ليجد في داخله ورقه مطوية، قرأها بهدوء ثم تحسس داخل المظروف ليجد سوارًا ذهبيًا هزيلًا وخاتمًا صغيرًا، أمسكه ثم أخرج منديلًا وباليد الأخرى التقط قرط معدني من الأرضية، عاينهما بدقته المعتادة، ثم أعاد السوار والورقة داخل المظروف مرة أخرى، وألقى القرط داخل الخزانة، فتش في حافظة النقود ولم يخرج منها بجديد، ثم خرج يوسف من الحجرة وأزاح عنكبوتًا عن كتفه.

سار يوسف ناحيتي متجاوزًا سمير، وضع يده فوق كتفي ليحفزني فيما يبدو، حاول يوسف أن يفتح باب الحجرة المقابلة لكنه كان مغلقًا بمفتاح، حاول أن يفتحه مرارًا دون جدوى، طلب من سمير أن يحاول فأخرج سمير مسمارًا معدنيًا هزيلًا، أدخله في ثقب الباب وحاول فتح الباب عبثًا، وأخبرنا أنه يستحيل فتحه كما لو أنه يوجد عليه قفل من الداخل، ابتسم يوسف ثم وضع يده في جيبه الأيسر وأخرج مفتاح معدني قديم، أسود اللون وله هيئة مميزة، لم يكن يعكس الضوء الخافت الساقط فوقه، يبتلع النور كما لو أنه خلق من الظلام نفسه، وضعه داخل ثقب الباب وأداره، فانفتح الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا ومرتفعًا، توجست من أن يتم سماع الصرير من على بعد فتراجعت خطوة إلى الخلف ونظرت إلى الباب المفتوح، في تلك

اللحظة قد أودعت قلبي في خزانة الخوف، نظرت للغرفة المظلمة مرة أخرى، وقد أعطي سمير ليوسف مصباحًا قد نزعه عن الأرضية اللزجة، أرسل المصباح ضوءه إلى داخل الغرفة لكنه كان خافتًا لدرجة أنه لا يصل إلى متر واحد أمامنا، وفجأة قبل أن يدلف يوسف إلى الغرفة غادر الضوء من لمبة الغرفة خلفنا فصار الظلام يحاوطنا، ولا يمنعه عن ابتلاعنا إلا نور البطارية الخافت وبقايا ضوء يصل من الصالة بصيصًا ضئيلًا كخيط رفيع من أمل ضائع، جف حلقي وسمعت قلبي يرتجف، بعدها انقطع النور عن البطارية، ثم سمعنا الباب يرتد منغلقًا بعنف.

في تلك اللحظة بالتحديد شعرت بقلبي يبحث عن مخرج له من صدري، سمعت أصوات تشبه الصفير، وصوت خربشة كأنما أظفار أحدهم تتحرك ببطء فوق سطح خشبي، لكنها بدت أصوات خفيضة لا يكاد المرء يسمعها، وساد الصمت كأننا في قبر وقد أحكم قبضته علينا، ثم لم تكد تمر دقيقة وعادت البطارية في يد يوسف لعملها وأرسلت الضوء أمامنا ليسقط شعاعه على الباب المغلق، عندما عاد ضوء البطارية وصرنا نبصر بعد عمى، فقد شرعت أتلفت حولي في كل الاتجاهات كالمجنون، وقد جحظت عينا سمير وتجمدتا في ثباتهما تجاه الباب الخالي من النقوش، أردت الكلام لكنني عجزت من هول الصدمة وقد شعرت أن القط قد التهم لساني، ثم عادت الإضاءة إلى المكان مرة أخرى، وقبل أن أحاول الحديث أشار إليّ يوسف بعلامة الصمت، وهمس لنا:

– أحدهم يصعد إلى هنا.

لم أكد أفهم ما يجري، ربما قد فقدت القدرة على التعبير أو حتى التفكير، اقترب سمير من باب الشقة ثم حمل مرآة وضعها بزاوية مناسبة ليرى أذا ما اقترب أحدهم بالفعل، وقد عاد إلينا بسرعة وهو يشير بيديه بأن نتوارى، فهمنا أن أحدهم سيصل إلينا قريبًا، وشعرت بالخوف يأكلني كما يأكل الفأر الجبن، أخذني يوسف من يدي ناحية الغرفة التي ارتكبت فيها الجريمة، وأنا لا أفكر سوى في أنني قد ورطت نفسي في مشكلة لا يد لي فيها، وأنه ربما تتوجه إلينا تهمة ما تزج بنا في السجن، وقفنا عند النافذة خلف الكرسي المثبتة فوقه رأس السيدة، وهمس لي يوسف:

– هيا بسرعة يجب أن نصعد عبرها إلى الأعلى.

لم أفهم ما يعنيه، تسمرت كشجرة وقد بدأ يوسف في دفعي نحو النافذة لأصعد عبرها فوقعت على الأرض واليأس يتملكني، شعرت أنه لا فرار لنا من هنا أبدًا، في تلك اللحظة قد رأيت سمير يدخل الغرفة ويتحرك نحو النافذة ويتجاوزها، وبدلًا من السقوط فقد بدا لي أنه يقف في الهواء، قبل أن يتسلق ماسورة قديمة ومن خلالها اختفى عن ناظري تمامًا وتوقعت أنه ربما قد دلف إلى الطابق العلوي بطريقة ما، وفي الوقت نفسه قد بدأت أسمع وقع أقدام وكلمات من حديث لم أركز فيه، وكان الصوت يقترب ناحية الغرفة، حملني يوسف على عبور النافذة لأسقط بجسدي على ما ظننته الهواء، فقد كان أسفل النافذة من ناحية التهوية عبارة عن شبكة حديدية، رجحت أنها ربما من حديد بناء المنزل، وقد قفز يوسف جواري بخفة وهدوء، ولم يكن الوقت في صالحنا لنتسلق مثل سمير، فتمدد يوسف فوق الشبكة الحديدية شبه نائما وأنا مثله، إلا أننا رفعنا

رأسنا إلى أعلى قليلًا لأن الخزانة التي كنا نفتش فيها داخل الغرفة كانت لها ضلفة ذات غلاف زجاجي، فرأينا عبره رجلين يدلفان إلى الغرفة ولم نقدر على رؤية وجهيهما، فقط عرفنا أنهما رجال شرطة بسبب زيهما الرسمي، كنت أتنفس بعصبية فهدأني يوسف بثقة لص يعرف أنه لن يكتشف، بينما أتمنى في سري ألا ينظر أحدهما عبر النافذة والقلق يتغذى على أفكاري، في تلك الأثناء سمعنا أحدهم يقول للآخر بحزم:

– لم يصعد أحد هنا منذ ذهاب الشرطة كما أمر المقدم أحمد عبد الهادي يا فندم.

التفت الآخر إليه، ثم ذهب إلى ناحية في الغرفة لا تصل إليها رؤيتنا وقال:

– يبدو أن التيار الكهربي قد انقطع وعاد فجأة، يجب ألا تذهب من هنا حتى أتم مهمتي، انتظرني خارج الغرفة وقم بتشغيل إضاءة الصالة، سأعاين المكان بطلب من السيد أحمد عبد الهادي ثم أرحل من هنا.

غادر الشرطي الأقل في الرتبة الغرفة، وبقي الآخر يفتش عن بعض الأدلة، ثم قام بفتح الخزانة وأزاح الجانب الزجاجي الذي نراه من خلاله فنظرنا إلى الأسفل في حركة عفوية، ثم عاود يوسف لوحده اختلاس النظرات إلى الداخل بينما أنا أتابع عنكبوتًا ينسج خيوطه على الحائط جواري وأكاد لا أرى مكانه بين فينة وأخرى فأشك أنه ربما لمحني فأزعجته أو قرر القفز على أرنبة أنفي، اختلست نظرة فلم أشاهد إلا أيدي الشرطي لأنه كان يحمل بطارية في إحداها

ولأن زاوية الرؤية لا تسمح بما هو أكثر، كان يرتدي قفازًا بلاستيكيًا وفتش في الخزانة مرة أخرى، عدت مرة أخرى لمتابعة العنكبوت وأنا أكافح رغبتي في الخروج من هنا بأي وسيلة، العرق كان يشبه قطرات المطر، عاود يوسف اختلاس النظر داخل الغرفة مرة أخرى، وفي تلك الأثناء أشعل سمير ضوء بطارية من نافذة الدور العلوي المطل علينا ليعرف وضعنا بالتحديد وأطفأها بسرعة، ألقى بحبل لنا يتدلى حتى أعلى نافذتنا مباشرة حتى لا يلاحظه الشرطي الذي كان منهمكا فيما يفعله، ظل يوسف يراقب الشرطي بين لحظة وأخرى فاعتقدت أنه يتحين فرصة للهرب إلا أن ما حدث تاليًا غير مسار تفكيرنا كتبدل مجرى النيل، فقد خرج الشرطي من الغرفة، وعندما لاحظ يوسف الأمر طالبني بالانتظار قليلًا حتى يتأكد من صفاء الأجواء لخروجنا، وبالفعل مضى الوقت ولم يحدث شيء ولم يدخل الشرطي مرة أخرى، حاول يوسف الوصول إلى الحبل إلا أنه سمع صوت ضوضاء في الصالة فتراجع عنه فعلته وعاد إلى وضعه السابق، ثم شاهدنا ظل أحدهم يدخل الغرفة، دفعنا الخوف لتجنب النظر إلى الداخل لخمس دقائق مرت في ساعة يدى التي كافحت من أجل رؤيتها، رفع يوسف هامته بعدها ليبصر ما داخل الغرفة ثم أنزلها بسرعة البرق فاعتقدت أننا سنقضي بقية الليل في الحجز، بل وتخيلت الباب الحديدي للزنزانة وهو يغلق علينا فيسود الظلام، لكن على كل حال فإن يوسف محامي فلن يكلفني الأمر سنتًا واحدًا للدفاع عن نفسي، وبالتأكيد ستنسيني الصدمة سنين دراستي، لكن الغريب أن أحدًا لم يمسكنا كما توقعت بل مضى الوقت علينا ونحن نكافح من أجل المحافظة على صمتنا والإمساك بطرف شجاعتنا

الذي بدأ ينفلت من بين أيدينا، من فرط الصمت داخل الغرفة طالبني يوسف بأن ألقي نظرة، وبالفعل رفعت هامتي لأبصر شرطيًا يجلس على الكرسي الذي كان يستقر فوقه رأس الجثة، عدت لحالتي ممددًا فوق الشبكة الحديدية وهمست في أذن يوسف بأن العسكري ربما يطالع شيئًا منا بينما يجلس على الكرسي، أشعل لنا سمير ضوء البطارية مرة أخرى لثانية، فهمس لي يوسف:

– لقد مل الانتظار، عليه أن يشعل التلفاز للتسلية قليلًا حتى نتم الأمر.

كافحت رغبتي في إشعال سيجارة، ساور الشك يوسف وشعر أن هناك خطبًا ما، في تلك اللحظة قد مرت ربع ساعة كاملة على صعود الشرطيين، رفع يوسف هامته وظل على حالته يراقب الوضع، ثم فجأة وجدته يقف ويدلف إلى الغرفة، جمدت الصدمة الدم في عروقي، لم تمر دقيقة حتى عاد يوسف وطالبني بالقفز إلى داخل الغرفة مثله، فعلت والشك يعتصر قلبي ويأكل أعصابي، وفي داخل الغرفة قد غمرتني المفاجئة، وجدنا الشرطي الذي قابلناه سابقًا يحرس المنزل يجلس على الكرسي في زيه الرسمي مذبوحًا كالشاه، والدم يقطُر من رقبته فوق الرأس المقطوع الثابت بين فخذيه، فتش يوسف في المكان عن أداة الذبح فلم يجد، وحاولت استيعاب ما جرى وإيجاد تفسير منطقي لما جرى فلم أجد قط، شعرت بالغباء يتسرب من عقلي وأنا عاجز عن الفهم، بحث يوسف في الغرفة ولم يجد شيئًا، فتش في جيب الشرطي فوجد دفترًا للملاحظات وبعض الأوراق فتركها على حالها، ثم نظر للجرح وقبل أن يعاينه شعرنا بالحر الشديد، واشتممت رائحة دخان يتطاير في الهواء، خرج

يوسف من الغرفة وعاد فورًا وهو يقول:

– المكان يحترق، يجب أن نذهب من هنا فورًا.

ركضنا إلى خارج الغرفة فوجدت النيران تتحرك بسرعة هائلة على الحيطان كأنها تركض ناحيتنا، ركضنا مرة أخرى متجاوزين باب الشقة المفتوح وصعدنا الدرج ثم وقبل أن نصل إلى السطح تذكرنا سمير الذي ينتظرنا في الطابق الأخير فنزل يوسف إليه وأشار لي بأن ألوذ بالفرار، لكنني انتظرته ليس تقصيرًا مني في تنفيذ الأمر بل لعجزي عن التصرف في مثل تلك المواقف، لم يمض الكثير من الوقت حتى وجدت يوسف وسمير يركضان إلى الأعلى وصعدنا إلى الدور العلوي باستخدام الحبل الذي جلبه سمير سابقًا من السطح لينقذنا، ثم نزلنا إلى الشارع الخلفي مثلما جئنا وفي دقائق كنا خارج الشارع نراقب من بعيد البناية التي فيها مسرح الجريمة وهي تحترق، وألسنة اللهب تلتهمها في الوقت الذي يحاول البعض فيه إخماد الحريق عبثًا، والبعض الآخر يصرخ من هول الحريق الذي نشب وازدهر في أقل من عشر دقائق وكأنه الجحيم يلتهم ما هو له وقد صاحب الحريق صوت انفجار مكتوم، لا أستطيع وصف الحريق بصورة أدق، لكن المنزل أخذ يحترق رغم المحاولات المضنية لإخماده، الآباء يركضون دون وجهة محددة، فيهم من يمسك بجردل الماء، ومنهم من يحاول عبثًا أن يتصل بالدفاع المدني عبر هاتف كشك لبيع الجرائد، ومنهم من يقترح أن يقطع كابل الكهرباء العمومي المغذي للشارع حتى لا يمتد الحريق، ومن بينهم الأطفال ينظرون بأعين مذهولة لما يحدث، ويستمتعون بمتابعة النيران وهي تلتهم الجدران والحديد، بل ربما أن في داخلهم جزء يطلب ألا

ينتهي الحريق أبدًا، لأنه جزء من متعة لا بديل لها، متعة مشاهدة الكوارث، وهي صفة بشرية مهما أنكرها البعض، فإنها تدفع الكثير منا للخطر، فلا أحد يستطيع أن يمنع نفسه عن مشاهدة شخص آخر في ورطة، أو يتعرض لموقف محرج، والأطفال تتجلي فيهم غرائزنا البشرية في أنقي صورها، وفي تلك الأثناء تحركنا في هدوء لنعود إلى السيارة، أشعلت سيجارة فطلب يوسف مني أن أعطيه واحدة ففعلت، أشعلها قبل أن ينطلق وقال:

– هناك لغز ما في تلك الجريمة، يجب أن أتحرك بسرعة لكشفه.

ثم سألنا:

– ما رأيكما فيما حدث؟

قال سمير وهو ينظر عبر النافذة الجانبية:

– لم أشاهد قط مسرح جريمة بهذا الشكل، بالإضافة إلى النقوش على الحائط، وكلام الرجل على المقهى عن الشياطين، الباب الذي انغلق عندما انقطع التيار الكهربائي، وفي النهاية اشتعال المنزل من تلقاء نفسه، ما سأقوله الآن مخالف لما آمنت به طوال حياتي بأننا نعيش في عالم يسرى المنطق على كل شيء فيه، فما رأيته اليوم يتعدى حدود البشر، يوجد شيء شرير في ذلك المنزل المحترق.

لم أشرع في الإجابة مباشرة، فقلبي لم يزل مذعورًا داخل صدري، لم أفهم ما جرى هناك، لكن ما أشعر به هو الخوف الخالص والنقي، إضافة إلى شعور بعدم الراحة، نظر يوسف ناحيتي ليذكرني بأنني لم أجب على سؤاله فقلت:

– تلك الرائحة هناك تشبه رائحة اللحم النتن، لقد أخبرني جدي ذات مرة أن تلك الرائحة النتنة دليل على وجود الشيطان نفسه.

لم يعلق يوسف على كلامنا، وبدأت في التفكير مرة أخرى في كل ما حدث وأنا غير مصدق، قبل شهر من الآن لو سألني أحد عن العفاريت لأجبته أنها خرافات، ولو قال إنه شاهد الشيطان لأخبرته أنه يهذي، واليوم أقولها على لساني، ربما للجن والعفاريت يد فيما جرى، فى الحقيقة لقد استمتعت طوال حياتى بحل الألغاز، والطريقة التي علمني والدي حلها مميزة وبسيطة، أخبرني بأن أحلل الأسئلة الكبيرة إلى أسئلة صغيرة، أن أقسم المشكلة الكبرى إلى عدة مشكلات بسيطة وأتعامل مع كل منها على حدى، لكن في الحالة التي نقابلها الآن فالأمر شديد التعقيد والحبال شديدة التشابك، وبالطبع كل هذا بعيدًا عن إحساسي المشترك مع سمير بأن شيئًا شريرًا ولعينًا حدث في ذلك المنزل، أمعن يوسف التفكير، وقاد سيارته في صمت، ثم قال فجأة:

– دعونا نفكر بشكل عملي أولًا قبل أن نتسرع في حكمنا، لا أقول إنني أنفي أي فرضية أو احتمال حتى لو كان خارج حدود العقل، يجب أن تقابلني في الصباح يا أحمد، وأنت يا سمير اتصل الليلة بالسيد فتحي غزلان ليرتب لنا في نقابة المحاميين أمرًا، يجب أن تنتدبني النقابة بخطاب قانوني أن أصبح المحامي الخاص للمتهم في هذه الجريمة، وبعدها أذهب إلى منطقة الجريمة، وقم ببعض التحريات عن المتهم لكن دون لفت الانتباه، وخاصة تحري في شارع زيتون، تظاهر بأنك زبون في صالون حلاقة وسيجيبك الجلوس بكل سهولة، دون كل شيء، حتى الشائعات ستفيد، يجب أن يتم الأمر

غدًا، أريد معرفة كل شيء عن عباس، سأذهب إلى المتهم لحضور التحقيق معه لكشف بعض الخيوط ثم بعدها يمكن الوصول لبعض الأجوبة، يجب أن ننجز الأمر بسرعة وإلا ستختفي الأدلة، وسنصبح مثل الباحث عن إبرة في كومة من القش.

ذهبت إلى منزلي والنوم يحاصرني، بينما عقلي لديه العديد من الأسئلة، منها "ما الفائدة التي تعود علينا من متابعة هذه القضية؟"، و"لماذا يمدنا ذلك المدعو فتحي غزلان بالقضايا الغريبة"، وأيضًا شغلتني أسئلة خاصة بالقضية كافية لتجعلني متيقظًا حتى الصباح لكني قد نمت في شطر من الليل دون أن ألاحظ حتى.

4

تقابلت مع يوسف في الصباح أمام قسم الشرطة حيث سيتم التحقيق مع المتهم، يحمل يوسف حقيبة في يده وفي الأخرى جريدة، اقترب مني وناولني الجريدة وقال:

– تفحص الخبر بنفسك.

أمسكت بالجريدة جاهلًا بما يجب علىّ فعله، فردت الجريدة المطوية لتظهر الصفحة الأولى أمامي وفيها الخبر واضحًا جليًا "جريمة شيطانية في القاهرة"، تابعت قراءة التحقيق الصحفي حول الحادثة لأجدهم يذكرون تفاصيل عن الشقة التي لم يشاهدها غيرنا، حتى وصف الرائحة والرسومات على الحائط بشكل أكثر من دقيق، سألت يوسف:

– كيف يعرفون كل هذه التفاصيل؟

أمسك الجريدة مني ووضعها في حقيبة يده، ثم قال:

– هذه الجريدة يديرها فتحي غزلان، يمدني بهذه القضايا الغريبة في مقابل أن يحصل على أخبار لا يعرفها أحد غيره، والجميع يفوز، ألم تفكر بالأمس في ذلك السؤال؟

أصابني سؤاله بالتوتر وجعل شكوكي حوله تزيد وتتشابك، فالرجل إما ذكي لدرجة لا يمكن وصفها، وإما أنه ساحر لعين يقرأ الأفكار، في تلك اللحظة رمقني يوسف بنظرة ذات معنى فظننت أنه سيخبرني أمرًا آخر يثير فضولي وجنوني في الوقت نفسه، لكنه قال:

– هل ملابسي مرتبة، وتناسب مقاسي؟

أنا لا أفهم كثيرًا في ذوق الملابس، ولم أعرف لماذا سألني هذا السؤال، أي شخص في العالم قد يبدو أحمق إذا سألك سؤالًا مفاجئًا كهذا، لكن مع يوسف فهمي عليك أن تنتبه لكل كلمة، فلست تعرف إذا ما كان يمزح، أو هناك سر خفي لا تلاحظه، أجبته منتظرًا حكمته:

– مناسبة.

تنهد وأجاب:

– أخيرًا تخيرت ملابس ملائمة، يجب أن ندخل الآن.

وضع يوسف يده في جيبه ليخرج خطابًا مغلفًا بمظروف أبيض وقال:

– هذا هو خطاب توكيل النقابة.

دلفنا إلى القسم والرهبة تتملكني، فلم أمارس المهنة بشكل فعلي إلى اليوم، فما بالكم بالدخول إلى مكتب وكيل النيابة الذي يحقق في واحدة من أبشع الجرائم، انتظرنا في الخارج قليلًا حتى نادانا العسكري لندخل، طرق يوسف الباب ودلف وأنا من خلفه، تصافح مع وكيل النيابة وقدم له الخطاب الذي يحتوي على وثيقة انتدابنا للدفاع عن المتهم، أشار إلينا وكيل النيابة بالجلوس وهو يقرأ الخطاب على مهل، ثم سألنا:

– من منكما السيد يوسف فهمي؟

فأجاب يوسف:

– أنا يوسف فهمي ومعي مساعدي أحمد أباظة.

– وأنا حلمي حسن وكيل النيابة، تشربت بمقابلتكما، لقد سمعت الكثير عنك يا أستاذ يوسف، يبدو أن النقابة ووزارة العدل يهتمون بهذه القضية لدرجة أن ينتدبوك لها، أنا أعرف أنك منقطع عن المحاماة منذ مدة أيضًا.

– أجل منذ فترة ليست بالقصيرة.

أشار وكيل النيابة إلى العسكري وقال:

– أخبر عم محمد أن يحضر لنا القهوة.

ثم عاد إلى النظر ناحية الأستاذ يوسف وكأنني أبرص يتجنبه خوفًا من العدوى، ثم قال:

– أنصحك أن لا تستمر في هذه القضية يا أستاذ يوسف، هذه القضية ستغلق في أقرب وقت، فلقد أمسكنا بالقاتل وهو الزوج من دون شك.

– أحترم نصيحتك بالتأكيد، لكن من فضلك أريد الاطلاع على محضر الضبط وعلى أقوال موكلي التي أدلى بها، وأيضا مقابلة المتهم والتحدث معه منفردًا وأيضًا معاينة المضبوطات

ابتسم وكيل النيابة بشكل مريب، وأجاب بطريقة ساخرة:

– تريد مقابلة المتهم والتحدث معه، لك ما تريد، لكن لو سألتني فلا أنصحك بذلك.

قالها ثم لم يمنع نفسه عن الضحك، وقف وكيل النيابة وتوجه نحو

الباب وقال:

– سأجلب إليكما المتهم وأترككم معه على انفراد، وبالمناسبة نحن لم نحقق مع المتهم بعد ولم يتحصل أحد منه على كلمة واحدة فقد قابلتنا مشكلة بسيطة ستعرفها بنفسك عندما تقابل موكلك.

خرج من الباب وأغلقه من خلفه، تبادلت ويوسف نظرات الدهشة ثم أتى وبعد دقائق قليلة جاء وكيل النيابة ليفتح الباب ويدلف ومن خلفه عسكري خدمة وفي الأغلال المتهم عباس، قال وكيل النيابة على مسمع المتهم:

– هذا هو موكلك السيد يوسف فهمي، وهذا مساعده، لديك ربع ساعة معهم على الرغم من معرفتي أنك لا تحتاج ولا دقيقة، ثم يبدأ التحقيق مجددًا.

ثم أشار إلى العسكري أن يفك وثاقه ففعل، دخل المتهم فوقفت أنا لأفسح له مقعدًا ليجلس، أغلق وكيل النيابة الباب، بدا عباس متوترًا يلتفت حوله بين فينة وأخرى، إضافة لاختلاسه النظر نحو الزوايا الفارغة في الغرفة، قال يوسف ليكسر الثلج:

– أنا محاميك، اسمي يوسف فهمي، أنا هنا لحمايتك ومساعدتك لكن ينبغي أن تتمتع بالصدق التام معي حتى أتمكن من مساعدتك.

نظر الرجل إلى يوسف ولم يبدِ اهتمامًا يذكر، أكمل نظراته نحو الفراغ دون أن ينطق كلمة واحدة، عاود يوسف الحديث:

– أخبرني بما حدث من فضلك، أريد معرفة الحقيقة، أخبرني بكل ما جرى.

أنهى يوسف حديثه وصمت ليسمع إجابة لم تصل قط، تنهد يوسف وتبادل معي نظرات اليأس قبل أن يحاول مرة أخرى بنبرة أقسى:

– ليس أمامك خيار سوى التحدث معي إذا كنت تريد النجاة من الموت، يجب أن تتكلم معي.

لم يحرك المتهم ساكنًا، فعاود يوسف الحديث لكن هذه المرة بطريقة مستفزة وقاسية فقال:

– يجب أن تخبرني بالحقيقة، هل قتلت زوجتك؟ ومن ذلك الآخر الذي قطعت رأسه، لقد سمعت أنه أخوك، يبدو أنه خانك مع زوجتك أليس كذلك؟

نهض المتهم من فوق كرسيه في هدوء، اقترب من يوسف وفتح فمه الذي يسيل منه اللعاب، ثم أخرج له لسانه الذي بدا مشوهًا بقطع في مقدمته لكنه جرح قديم، ثم عاد ليجلس مكانه مرة أخرى، ووضع إصبعه في فمه وجعل يقضمه بأسنانه، وفي تلك اللحظة صحت تلقائيًا فدخل وكيل النيابة ومعه العسكري، أمسك العسكري بالمتهم وكبل يديه بالأصفاد بمساعدة من وكيل النيابة، حركة المتهم الهيستيرية أصابتني بالرهبة، جسده ينتفض بصورة لا معقولة، سيطر عليه العسكري بصعوبة، وبمساعدة فرد آخر نقلوه إلى خارج الغرفة ووكيل النيابة يصيح فيهم:

– انقلوه إلى غرفة الحجز الانفرادي.

ثم توجه إلى مكتبه ونحن مجمدون في مقاعدنا من الدهشة، رفع

وكيل النيابة سماعة الهاتف الخاص بمكتبه، وطلب رقما لا أعرفه وقال فيما يبدو مخاطبًا شخصًا مسئولًا:

– أريد إحضار طبيب فورًا إلى القسم، الحالة طارئة.

وضع وكيل النيابة سماعة الهاتف بحركة عصبية، وأشعل سيجارة ونفث الدخان في الهواء أمامنا مبددا شعوره بالقلق، ثم نظر إلى يوسف وقال:

– لقد أخبرنا الطبيب الذي فحصه أنه في حالة صدمة من الحادثة، لكن لم نكن نعرف قط أنه يمكن أن يؤذي نفسه أمامك أو يتصرف بهمجية وبعنف مثلما فعل، أنا متأسف على ما بدر منه كان يجب أن أتخذ الحيطة.

أجاب يوسف ممتعضًا:

– يجب أن تقوم بواجبك بشكل أفضل، لقد مر الأمر لحسن الحظ.

فنظرت إليه مندهشًا، كيف يدفع المتهم إلى الجنون، ثم يتهم شخصًا آخر أنه لا يقوم بواجبه، وفي تلك الأثناء بدا وكيل النيابة متوترًا، سأله يوسف على حين غرة:

– لماذا لم تستجوبه النيابة باستخدام ورقة وقلم، بالتأكيد هو يعرف القراءة والكتابة؟

أجاب وكيل النيابة بعد أن نفث نفسًا آخر من الدخان:

– بالتأكيد حاولنا، لكنه وكما ترى لا يستجيب لأحد، ولا يبدي أدنى انتباه للحوار، فكيف به أن يجيبنا، وضعنا أمامه ورقة وقلم أكثر من

مرة وطلبنا منه أن يكتب لكنه يرفض في كل مرة وبطريقة مخيفة لدرجة أنه في مرة حاول أن يجرح نفسه باستخدام القلم فاستبعدنا الفكرة.

سكت يوسف قليلًا ثم عاود توجيه دفة الحوار ناحية وكيل النيابة قائلًا:

– نريد أن نقرأ محضر الضبط.

أجاب وكيل النيابة:

– حسنًا.

وفي تلك اللحظة بالذات لم أعتقد قط أن دوري قد حان أخيرًا، لكن ليته لم يَحِن، فقد تركني يوسف أقرأ محضر الضبط لثلاث مرات دون جدوى، أخبرني أن أستخرج من المحضر المعلومات التي قد تساعدنا في بحثنا عن القاتل، وكأنه يريد دفع التهمة عن الزوج بأية طريقة، وبينما أراجع أنا المحضر أخذ هو يعاين المضبوطات المتحفظ عليها من قبل النيابة العامة باعتبارها ضلعًا أساسيًا في القضية، ومن تلك المضبوطات المحتويات التي كانت بحوزة المتهم في أثناء القبض عليه، أبدى يوسف اهتمامًا مضاعفًا وكانه تحول إلى رجل آخر، تحول إلى رجل أكثر تركيزًا وانضباطًا، أحرص في أفعاله وأقواله، وحاد البصر والبصيرة، أخذ يوسف يعاين المضبوطات بعناية فائقة وأنا لا أحرز تقدمًا يُذكر في المحضر للدرجة التي جعلتني أتركه جانبًا للحظات من أجل استعادة تركيزي وترتيب أفكاري، وفي تلك اللحظة أمسك يوسف بالمفكرة الخاصة بالمتهم، فحصها من الخارج بعناية ثم فتحها ودقق في صفحاتها، وفي لحظة

لمعت عيناه فأيقنت أنه وجد ضالته إلا أنه سرعان ما عاد إلى برودة وجهه الأولى ثم وضع المذكرة دون أن يبدي ردة فعل إيجابيه، وعندما انتهينا من فحصنا المضني سلمنا وكيل النيابة المحضر والمضبوطات وشكرناه، وقبل أن نخرج قال وكيل النيابة ليوسف:

– يا أستاذ يوسف أنصحك بعدم إكمال هذه القضية.

قال يوسف:

– لماذا؟

التفت وكيل النيابة حوله كأنه يخشى مما يقول!

– هذه القضية ملعونة، كما ترى الزوج جن، والجثتان في حالة بشعة، حتى إن العساكر يعتقدون أن تلك حادثة شيطانية ويرفضون في بعض الأحيان التعامل المباشر مع المتهم خوفًا من الشيطان، بالتأكيد أنا رجل متعلم وأنت كذلك، لكن في بعض الأحيان يجب أن نأخذ الأمور بشكل مبسط ومباشر، كل الأدلة تشير إلى الزوج، الذي لا ينفي التهمة بل وغارق في حالة من الهذيان، الأدلة ثابته وأداة الجريمة تحمل بصمات المتهم، لا داعي لبذل الجهد في قضية خاسرة.

صمت يوسف ثم صافح وكيل النيابة وقال:

– أعدك أن أفكر في الأمر، شكرًا على تعاونك معنا، وعلى نصيحتك الغالية أيضًا.

ودعنا وكيل النيابة، ثم خرجنا دون جديد يذكر، وفي اللحظة التي غادرنا فيها القسم أخرج يوسف مفكرته الخاصة ودون فيها قرابة

الصفحة، سألته:

– ماذا دونت؟

نظر ناحيتي وأجاب بعبقرية:

– أمر ما!

شعرت ساعتها بالضيق لأنه نادرًا ما يشاركني في أفكاره، وبينما ظننته يتجاهلني سألني فجأة:

– هل وجدت شيئًا مثيرًا للاهتمام في المحضر؟

أجبته قاطعًا:

– لا.

فعاد إلى تجاهلي مرة أخرى ونحن نتجه ناحية السيارة، فعاد شعور الضيق مرة أخرى يخيم على صدري، وعندي عادة تتلخص في أنني كلما شعرت بالضيق لا أحاول البوح به، بل أنغمس في تدخين سيجارة، أخرجت علبة السجائر وتخيرت واحدة ثم أشعلتها وشرعت في التدخين، ربما تلك هي أول مرة أدخن فيها أمام يوسف فهمي، قبلها كنت أكن لها اعتبارًا معينا يمنعني عن التصرف بحريه أمامه، ربما قدر من الاحترام ممزوج ببعض الخوف الطفولي الذي لم يفارقني بعد، أعاد يوسف فتح مفكرته مرة أخرى وعاود التدوين فيها في صفحة جديدة، كل ذلك ونحن واقفون أمام سيارته، أردت فتح الباب وركوب السيارة لكنه منعني بلطف ثم انتهى من التدوين في المفكرة ووضعها في جيبه وقال:

– أنت حر في التدخين يا أحمد هذا أمر لا جدال فيه، لكن أنا لا أسمح لأحد بالتدخين في سيارتي، وهذا أمر غير قابل للنقاش، فلتتنهِ من سيجارتك ثم نركب بعدها السيارة.

دخنت السيجارة بعصبية بينما لم يبدُ عليه الغضب أو الملل، فقط أخرج الساعة من جيب معطفه ونظر فيها ثم وضعها مرة أخرى سألته:

– كم الساعة؟

– الثانية مساءً.

بمجرد أن انتهيت من تدخين السيجارة ركبنا السيارة فورًا، وانطلق يوسف في طريقه دون أن أعرف الوجهة التي نتجه إليها، وكنت قد اكتفيت من الخجل فسألته:

– إلى أين نتجه؟

فأجاب بهدوئه المعتاد، الذي يصل أحيانًا إلى درجة البرود:

– لا تتعجل يا أحمد، نحن ذاهبون إلى مكان هام لكن لن أخبرك الآن.

– هل هذا يعني أنك قد وجدت دليلًا؟.. هل حصلت على معلومة تساعدنا في حل تلك القضية المخيفة؟

لم يجبني، يجب أن أعترف أنه يجيد التلاعب بالأعصاب بدرجة فائقة، ويجيد تقمص دور الغامض بشكل احترافي، وتلك مهارة في حد ذاتها ولا يمكن نكرانها، لكن في تلك اللحظة كنت قد سئمت قليلًا

من غموضه وأردت أن أجذب منه القليل من المعلومات حتى أشعر بالزهو وربما القليل من الثقة، وقد بدأت في تكوين قراءة لشخصيته ومنها أنه لا يحب أن يسأله أحد بشكل مباشر، فهو يشعر برغبة في عدم الإجابة بشكل صريح وواضح، يميل إلى كتمان أفكاره ومشاركتها مع نفسه فقط، لهذا قلت في محاولة لاستدراجه:

– أعتقد أن عباس هو القاتل، لا يوجد أدنى شك في ذلك، فكما قال وكيل النيابة هذه قضية ملعونة والأدلة تشير إلى الزوج، فلنبتعد إذن عنها، فلو كان أمرًا شيطانيًا يقف خلف ما جرى، فمن مصلحتنا أن نبتعد عنها، وأنا لا أقول إنني أعتقد ذلك لكن أنت نفسك قلت إن كل الاحتمالات واردة، وفي حالة أنها جريمة قتل مدبرة بهذا الشكل البشع فالزوج نفسه يدعي الجنون لدرايته أن الأدلة كلها ضده وهو أمر متوقع وأعتقد أنه لن يفلح فيه.

سألني يوسف:

– والرسومات على الحائط من أين جاءت، والرائحة الحمضية في مسرح الجريمة، ومن قتل الشرطي الآخر هل هو الجن أيضًا؟.. الخيوط غير متشابكه يا أحمد، يوجد أمر غريب في تلك القضية فالأدلة تتجه نحو القاتل بطريقة بسيطة لا يمكن تصديقها.

– ماذا تقصد؟

– الأدلة ثابتة على المتهم، حتى إنه فقد النطق ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، أقصد أن القضية سهلة للغاية من وجهة نظر وكيل النيابة وهو أمر مقلق، فبمقارنة سهولة القضية بتعقيد الجريمة نفسها يثير الأمر الريبة، كيف لقضية بهذه البشاعة والدقة أن يقع

مرتكبها في يد النيابة بهذه البساطة، والرسم على الحائط أنا أذكر أن الحبر كان يترك أثرًا، أقصد أن الكتابة على الحائط كانت حديثة مما يعني أن الأمر ليس له علاقة بالسحر وأن عباس لا يقدر على رسم كل تلك الرسومات بهذه الدقة وبهذه السرعة فقد رأيت خط يده في المفكرة وهو خط سيئ لا يشبه الخط الآخر على الحائط، مما يعني أنه لم يرسمها بنفسه.

– معك حق، الأمر يبدو مريبًا جدًا، لكن ما يؤرقني الآن هو من قتل العسكري؟.. ولماذا مات عسكري واحد فقط وأين ذهب الآخر؟.. ولماذا لم يخبرنا وكيل النيابة بأي تفاصيل حول ذلك الأمر؟ صحيح يا يوسف، لماذا لم تسأل وكيل النيابة عن جثة العسكري؟

– لأنه لم يخبرنا بالأمر يا ذكي، لا أحد يعرف بأمر جثة العسكري تلك، ربما حتى وكيل النيابة لم يعرف بعد أن العسكري قد احترق في ذلك المبنى، أو أنه يعرف لكنه أراد أن يوقعنا في أمر ما؟ فلو أخبرناه أننا نعرف بأمر تلك الجثة لشك في درايتنا بأمور يجب أن لا نعرفها ولوقعنا تحت مساءلة القانون يا مغفل!

أصابني تحليل يوسف لما جرى بضيق في صدري فسألت:

– هل تعني أن وكيل النيابة يشك بنا؟

– ربما شك في سرعة انتدابنا لحل القضية، لا أدري لكن الاحتياط واجب في مثل هذه القضايا، لكن هذا ليس ما يجب أن أقلق بخصوصه الآن فهناك أمر آخر يشغلني.

– هل تقصد أنك ستترك القضية كما أخبرك وكيل النيابة؟

أوقف يوسف السيارة على جانب الطريق فاعتقدت أنه سيخبرني سرًا، قال:

– تلك القضية استفزت ذكائي، ولا أقصد أنني مهتم بالقضية من أجل الذهاب إلى المحكمة أو الشهرة فكل تلك أحلام صبيانية لم تعد تشغلني، ولا أهتم أيضًا لتبرئة الزوج أو الزج به في السجن فتلك هي مسئولية النيابة والشرطة، أما أنا فأريد فقط فهم ما جرى، أريد إيجاد تفسير لتلك القضية وربط تلك الخيوط ببعضها بعضًا حتى لو جعلني هذا أطارد الشيطان نفسه.

قال عبارته التي لم تبدُ كخطبة ولا تصريح خاص رغم أنها للوهلة الأولى بدت كذلك، وعندما انتهى منها ازداد شعوري بالتقدير نحوه، سألته والحماس يغمرني:

– أخبرني إذن إلى أين نحن ذاهبون؟

ابتسم بهدوء وقال:

– لقد وصلنا بالفعل إلى وجهتنا.

ثم أشار إلى لافته مكتوب عليها "متجر الحيوانات الأليفة"!

دلفنا إلى ذلك المتجر والدهشة تقتلني والأسئلة تحاصرني من كل حدب وصوب، ما علاقة هذا المكان بحل تلك الجريمة المعقدة، ناهيك بأنني من الأساس غير مقتنع بوجود مرتكب آخر لهذه الجريمة، بالتأكيد هي جريمة معقدة لكنها بالنسبة لي ولوكيل النيابة فهي في سهولة شرب الماء، فالأدلة كلها تشير إلى مجرم واحد، فليس هناك دافع لارتكاب جريمة بشعة كهذه إلا بدافع شخصي،

وحتى الدافع الشخصي قد لا يجعل المرء في مثل هذه الحالة الجنونية ليرتكب مثل هكذا جريمة جهنمية، هذا لو سلمنا أن الفاعل ليس شيطانًا وهي فكرة حتى يوسف فهمي العاقل لا يستبعدها.

وضع يوسف يده فوق مكتب الاستقبال ونادى على التاجر الذي انزوى داخل المتجر بجوار قفص يحوي طائرًا وقد بدا لي أنه يفحصه بيديه، التفت إلينا التاجر وجاء على الفور بعد أن مسح كلتا يديه في خرقة قماش ووضعها جانبًا، ثم وقف خلف المكتب مبتسمًا ليوسف وقد بدا لي أنهما يعرفان بعضهما جيدًا، قال التاجر:

– مرحبًا بصديقي العزيز، كيف أخدمك يا أستاذ يوسف؟

سؤال أكد توقعاتي وبدد شكوكي حول معرفتهما، أجابه يوسف:

– مرحبًا يا حمودة، في الحقيقة لقد جئت لأسترد سلطان من عندك، أتمنى ألا يكون قد سبب لك إزعاجًا.

فرك الرجل شعيرات رأسه الأمامية الناعمة وقال وهو يمسح جبينه متظاهرًا بالتعب:

– كلا، إنه حاد المزاج وهذا أمر لا يمكن إنكاره، لكنه مسل للغاية.

بدأ الأفكار تغزو رأسي حول سلطان هذا، في الغالب هو كلب خاص بيوسف، يساعده في حل قضاياها، لهذا فقد جاء ليحضره من أجل حل تلك القضية المريبة، وعلى كل حال فالحقيقة ستظهر في خلال لحظات، في تلك الأثناء وضع يوسف يده في جيب معطفه وأخرج مظروفًا أبيض ووضعه في يد حمودة وقال:

– أتمنى أن يوفي هذا أجرك.

ابتسم حمودة وقال:

– كريم كعادتك يا أستاذ يوسف، دقيقة واحدة وأحضره لك.

أشار يوسف بيده نافيًا، ونطق:

– أريد إحضاره بنفسي.

تجولنا داخل المتجر الواسع على عكس ما يوحي به مدخله الضيق، مررت نظري في أثناء سيرنا على أقفاص الكلاب التي بدت كلها ضخمة ومتشابهة بالنسبة إلى جاهل بالحيوانات الأليفة مثلي، تساءلت في نفسي أيهم هو سلطان، بالتأكيد هو كلب بوليسي شرس، وبالفعل تحرك يوسف ناحية قفص كلب ضخم، أسود اللون، له عينين داكنتين، لكنه مر بجواره ولم يمسكه، وتحرك بخفة ناحية قفص معلق على الحائط وبداخله ببغاء أخضر اللون له رقبة بيضاء، أمسك يوسف بالقفص وحمله عن الحائط وقال:

– مرحبًا يا سلطان، هل افتقدتني؟

5

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى تحركنا بالسيارة مرة أخرى في مشهد عجيب، يوسف على عجلة القيادة وأنا انتقلت من الكرسي جوراه إلى الخلف جوار سلطان لأمده ببعض الحبوب التي جلبها يوسف معه، لم أطعم طائرًا في حياتي وهذا يجعل من سلطان تجربتي الأولى مع الطيور، بالطبع بعيدًا عن اعتقادي المبدئي أنه اسم كلب، لكن في النهاية حمي البدايات دائما تزول، سألت يوسف:

– إلى أين الآن، إلى بيت الزواحف؟

أجابني دون أن يزيح عينيه عن الطريق:

– إلى المنزل.

وبالفعل وصلنا إلى الشارع حيث يقطن يوسف، أوقف يوسف السيارة ونزل ليحمل قفص سلطان، وبينما أمسح معطفي من بقايا طعام الطيور وجدت أحد الأخوين الذين يطاردون يوسف دائمًا يركض ناحيتنا مذعورًا وقال:

– أستاذ يوسف، هناك شيء يجب أن تعرفه فورًا، أخي بالأمس شاهد شيئًا يجب أن يخبرك إياه.

لم يهتم يوسف كثيرًا على خلافي، فقد تذكرت أن أخاه كان في الحارة التي كنا فيها، وربما شاهد شيئًا يفسر لنا الحريق المفاجئ للمنزل، لكن يوسف انطلق في طريقه نحو العمارة حاملًا قفص سلطان، وضغط زر المصعد وهنا ذهب الفتى ناحيته وكرر:

– يا أستاذ يوسف، هذا أمر طارئ.

أجاب يوسف لا مبالٍ:

– أنا غير مهتم يا سليم.

بدا سليم هذا فاقد الأمل خائر القوى، قبل أن يستعيد عافيته وينطلق نحوي مثل السهم ووقف قبالتي وقال:

– يا أستاذ يجب أن أخبر السيد يوسف بأمر هام.

– لكن يبدو أنه لا يريد أن يستمع.

عاد اليأس ليخيم على الشاب من جديد، وددت لو أني لدي الفرصة للاستماع له لكن يبدو أن يوسف على عجلة من أمره وأنا لا أستطيع تركه بمفرده ونحن بصدد حل قضية هامة، هذا طبعًا لو لم أجد في صالة منزله فرس نهر يلتهم حفنة من الجرجير وينتظر وصولنا، وربما يسميه طمطم على سبيل الدعابة، في تلك اللحظة فتح يوسف المصعد ودخله وصاح بي:

– يا أحمد لدينا عمل نقوم به.

تحركت ناحية المصعد وسليم يمشي جواري ويقول:

– اسمعني.

– ليس عندي وقت، يمكنك أن تحاول مع يوسف مرة أخرى.

– من فضلك يا أستاذ اسمعني فهو لا يثق بي، سأنتظرك هنا بالأسفل أمام باب العمارة ريثما تنتهي من عملك مع يوسف، الأمر جد مهم وأنا أحتاج إليك.

هناك معلومة عن شخصيتي لا أحب أن أشاركها مع أحد وهي أنني لا أتحمل أن يقول أحدهم عبارة "أرجوك" الأمر أشبه بتعويذة تجعلني أرغب في مساعدته فورًا، لهذا أجبت بشكل تلقائي:

– حسنًا.

نطقتها وانطلقت نحو المصعد، صعدت بداخله وأغلقت بابه والفتى ينظر ناحيتي نظرة أمل وتصميم، في أثناء تواجدنا في المصعد شعرت بنوع غريب من الحرارة لكني لم أعره انتباها، فقد أردت سؤال يوسف عن سليم، لكني قد تراجعت على كل حال عندما رأيت نظرته البلهاء إلى سلطان، وعندما توقف المصعد في طابق الشقة سألته:

– هل نحن هنا لمتابعة القضية؟

نظر ناحيتي باندهاش وأجاب:

– لا، بل لإعادة سلطان إلى المنزل.

وقفنا أمام باب الشقة وتتردد في رأسي مقولة واحدة "يا له من رجل غريب الأطوار"، فتح يوسف الباب ودخلنا لنجد رجلًا يجلس فوق كرسي المائدة، والذي فاجأنا قائلًا ليوسف:

– لقد انتظرتك طويلًا.

تحرك يوسف ناحية قفص سلطان فوق الطاولة، ثم أخرج الساعة من جيبه ونظر فيها مليًا ثم أجاب:

– يبدو أنك وصلت مبكرًا عن الموعد، لكن أخبرني كيف دخلت؟

نظر الرجل لسلطان الذي بدأ يغرد بعصبية في تلك الأثناء وقال:

– أنت تعرف أنه أمر بسيط بالنسبة إلى رجل مثلي.

صفر يوسف لسلطان حتى يهدأ وقال مخاطبًا الرجل:

– نورت المنزل يا أستاذ عادل أدهم.

وعادل هذا هو رجل في الخمسين من العمر، له شعر أسود لامع الصبغة، ورأس بيضاوي الشكل تزينه عينان ضيقتان وأنف ضخم، إضافة إلى شارب خفيف يستقر فوق شفتين غليظتين لفم واسع، عندما أطلت النظر إليه رمقني بنظرة حادة فقال يوسف مبتسمًا:

– لا تقلق منه فهو مساعدي، وبالمناسبة أنت مدين له باعتذار، فقد سبب رجالك له الذعر في أول لقاء يجمعني به.

العبارة الأخيرة من يوسف كانت ذكية بحق، يبدو أنه ينبهني إلى خطورة الضيف، فهو على الأغلب الرجل الذي حاول اختطاف يوسف سابقًا، توقعت أن تستفز عبارة يوسف الرجل، لكنه لم يهتم كثيرًا وأجاب دون اعتناء:

– أخبرتك من قبل أنني لم أفعلها.

– هذا غير مهم الآن، هل تحب تناول القهوة؟

أشار الرجل برأسه موافقًا، فوجه يوسف نظره ناحيتي وقال:

– من فضلك أعد لضيفنا كوب من القهوة يا أحمد.

في الحالات العادية لم أكن لأتردد في صناعة القهوة، ففي النهاية أنا أعمل لدى يوسف، لكني أردت متابعة الحديث الذي أحسبه

سيكون شيقًا، ولن أرتاح في المطبخ بينما تدور هنا المناقشات الهامة، فقد اكتفيت من الجهل بالأمور، لهذا تظاهرت بالغباء وقلت:

– أنا لا أعرف كيف أحضر القهوة.

لم يظهر عادل سخطه من عبارتي، أما يوسف فقد تنهد وقال لضيفه:

– هذه المشكلة تقابلني دائمًا، فأنا فاشل في اختيار رجالي، أعتقد أنها صفة نتشاركها، فلم يفلح رجالك معي في الحصول على مرادك مني أبدًا.

أنا أعرف جيدًا أن يوسف لا يصدقني لأنه يعرف جيدًا أنني عشت بمفردي لفترة طويلة فقد أخبرته بنفسي، أما الضيف فلم يبدِ اهتمامًا يُذكر، في تلك الأثناء لاحظت وجود حقيبة سوداء من الجلد موضوعة على الأرض أسفل الطاولة، رفعها عادل عن الأرض ثم وضعها على الطاولة أمام يوسف وقال:

– لم أفعلها لكن سواء أردت أم تصدق أم لا فهذا أمر يخصك، لننتهي من الصفقة بسرعة.

أجاب يوسف:

– سيتم الأمر بسرعة كما تريد، لكن لم أعهدك متسرعًا، أنت دائمًا صبور، أم أنك لا تقدر على الانتظار أكثر من أجل ما بحثت عنه لمدة طويلة.

– والآن أنا هنا من أجل إنهاء الأمر بالطريقة اللائقة.

– بعد أن حاولت لأسابيع بشتى الطرق أن تسرقني وفشلت:

امتعض عادل هذه المرة ورفع يده عاليًا على جبينه، لكنه كتم غضبه وأجاب:

– أخبرتك أنني لم أحاول خطفك أو سرقتك، لقد كنت أراقبك فقط للتأكد من امتلاكك لما أريد.

فسأله يوسف بسرعة وبشكل مباشر:

– حسنا قبل أن نتمم تلك الصفقة التي تتحرق شوقًا إليها، عليك أن تخبرني باسم الشخص الذي حاول اختطافي، ألم تقل إنك راقبتني طوال تلك المدة، فبالتأكيد لديك المعلومة، لا أريد منك سوى اسمه.

بدت علامات التفكير على وجه عادل، وقد أدركت جيدًا أنه رجل ماكر، فملاحظة قسمات وجهه أمر شديد الحساسية فهو لا يظهر الكثير من الانفعالات، صمت عادل قليلًا ثم نطق فجأة.

– عدلي كاسب.

وفي تلك اللحظة فقط هدأ يوسف وكف عن محاولاته المستميتة لاستفزاز عادل، قال يوسف:

– هل أنت متأكد أن عدلي كاسب هو الشخص الذي وقف وراء كل تلك الحوادث.

– لا يوجد رجل غير عدلي كاسب يمتلك القدرة على إثارة كل هذه الجلبة من أجل الوصول إلى شيء يريده.

حرك يوسف رأسه موافقًا ثم حك شعيرات لحيته الخفيفة ثم نظر ناحية الببغاء وقال:

– لقد حان الوقت لأعرفك إلى صديقي القديم سلطان.

– لا وقت لدي لذلك يا يوسف، من فضلك لنتم الصفقة.

ابتسم يوسف بمكر وقال:

– سلطان هو الشخص الذي سيساعدني على إتمام الصفقة، فهو الذي داخ بسببه كل الرجال الذين أرادوا أن يسرقوني.

فكرت في أثناء حديثهم في ذلك الشيء الذي يرغب عادل في شرائه، ويحرص كليهما على عدم ذكره مباشرة أمامي، بالتأكيد هو شيء نفيس وسري للغاية، للدرجة التي تجعل عدلي ذلك يحاول خطف يوسف للحصول عليه، في تلك الأثناء قال عادل ليوسف:

– ماذا تقصد بكلامك؟

ابتسم يوسف بخبث مرة أخرى وأخرج من جيب معطفه مفتاحًا صغيرًا فتح به قفص الببغاء، وحركه بيده قليلًا ليتمكن من رؤية المكعب المعدني الذي يقف عليه الببغاء، وهو مكعب معدني من بنية القفص نفسه ومغطي بقطعة من القماش، أصدر سلطان صفيرًا يشبه الضحك، بينما يزيح يوسف الغطاء عن المكعب المعدني الذي تبين أنه صندوق له باب، فتحه يوسف بالمفتاح نفسه وأخرج من داخلها كيس قماشي صغير لونه أزرق داكن، الكيس مغلق جيدًا وهو يشبه تلك الأكياس التي تحفظ بداخلها المجوهرات الثمينة، أو الأشياء صغيرة الحجم وغالية القيمة، هز يوسف الكيس أمام عادل وقال:

– والآن يجب أن تعرض الثمن.

فتح عادل الحقيبة التي كانت مكدسة بكم هائل من الأموال، لم أصدق ما رأيته فهذا أضخم مبلغ شاهدته في حياتي، على الرغم من أن والدي صاحب أملاك ميسور الحال، فركت عينَيّ لأصدق أنه يوجد رجل يمكنه دفع ذلك المبلغ، وراودتني الشكوك في محتوى الكيس القماشي، فما ذلك الشيء الذي يمكن شراؤه بهذا المبلغ الهائل، مد عادل يده ليمسك بالكيس لكن يوسف أبعد يده، ثم أغلق القفص على سلطان الذي بدا مبتهجًا وسعيدًا، قال يوسف:

– يجب أن أتأكد بنفسي من المال قبل أن تحصل على الكيس.

لم يحتج عادل مطلقًا، وفي تلك الأثناء نظر يوسف ناحيتي وغمز لي ثم قال موجهًا حديثه إليّ:

– الآن يا أحمد، خذ سلطان وعلق قفصه على الحائط في غرفة مكتبي، ستجد خطافًا على الحائط الأيسر.

لم أعرف لماذا طلب مني يوسف هذا الآن، هل هو يسخر من عادل حتى في أثناء القيام بعملية تبادلية هامة، قمت بالأمر بسرعة وعدت لأجد يوسف لا يزال يفحص النقود بعينيه جيدًا، قبل أن يقول أخيرًا:

– كان يجب أن أتأكد بنفسي من سلامة الأموال، فقد صار الخداع صفة شائعة والجميع لديه حس الدعابة.

لم يهتم عادل بالرد، وثبت نظره على الكيس منتظرًا، وفي تلك اللحظة مد يوسف يده بالكيس ليضعه في كف عادل الذي حمله بيده بعناية، ثم فتحه ونظر بداخله بعينين جاحظتين من الدهشة

والبهجة، وابتسمت عينيه قبل فمه، ابتسامة نصر طال انتظاره، تملكت السعادة منه كأنه رجل في الستين حصل على أول ابن له، ابتسامه تائه في الصحراء عندما تسقط أول نقطة مياه فوق شفتيه، حرص عادل على عدم إخراج محتوى الكيس، الكيس الذي سيظل محتواه سرًا يبدو أنني سأنتظر طويلًا قبل أن أعرفه، أو ربما لن أعرفه أبدًا، أحكم عادل إغلاق الكيس ثم وضعه في الجيب الأيمن لمعطف البدلة، ثم همّ واقفًا فجأة دون أن ينبس بكلمة واحدة، وهنا ابتسم له يوسف وقال:

– يبدو أنك مستعجل بالفعل.

في تلك اللحظة حاول عادل كبت مشاعر الفرحة التي فضحتها نظراته المبتهجة، ونطق:

– يجب أن أرحل الآن يا يوسف، شكرًا لتعاونك معي.

ثم مد يده فصافحه يوسف وقال:

– أنت تعرف طريق الخروج جيدًا.

كلمات يوسف الباردة لم تفلح في تعكير مزاج عادل الذي انطلق مغادرًا في صمت.

لم تمض ثوانٍ على مغادرة عادل للمنزل، حتى توجه يوسف إلى الباب ليغلقه تمامًا، ثم توجه إلى النافذة المطلة على الشارع ففهمت أنه يتأكد من رحيل عادل، لكني لم أفهم ما يقوم به يوسف بالضبط، لم يعرني يوسف انتباهًا كعادته عندما يدبر أمرًا ما، وانطلق نحو غرفته وتأخر ثوانٍ فتوجهت ناحية الغرفة لكن لم أدخلها حتى لا

أقاطعه، ثم بعد قليل وجد دليل الهاتف في أحد الأدراج ووضعه على المكتب وقال:

– ابحث عن اسم عدلي كاسب في دليل الهاتف يا أحمد.

أخذت أبحث عن الاسم في دليل الهاتف وفوجئت بيوسف يغادر الغرفة فتحرك بداخلي الغضب مرة أخرى وقلت ساخرًا على غير عادتي:

– ماذا يا يوسف هل ستدعني منهمكًا في البحث عن الاسم في دليل الهاتف، بينما تنطلق أنت في مغامرة جديدة دون مساعدتي.

قلت هذا الكلام مدفوعًا بحزني من يوسف، لشعوري الدائم بأنه لا يثق بي بشكل تام، لأنه لا يشاركني أفكاره وكأني شاة يجرها إلى مذبحها، لكن يوسف لم يعلق على نبرتي الساخرة، وتركني في الغرفة أبحث عن الاسم محبطًا من عدم التأثير فيه، وقبل أن ينتهي بحثي عاد حاملًا كيس مكتوب عليه "طعام للطيور"، وضع القليل منه في علبة صغيرة وفتح باب قفص سلطان ودس العلبة ثم أغلقه مرة أخرى، بعدها بدقيقة أو أكثر وجدت الاسم بينما يوسف لم يزل واقفًا في مكانه جوار القفص يراقب سلطان في اهتمام غير مسبوق منه، فمذ عرفته لم أجد تلك النظرة الحانية على محياه قط، قلت له:

– لقد وجدت الاسم.

– حسنًا.

توجه ناحية باب الغرفة وأغلقه علينا، كأنه يخشى من تنصت أحد علينا، لم أكن لأعتبره تصرفًا غريبًا في الظروف العادية لكننا

في المنزل بمفردنا بالفعل، لكني لم أعلق على كل حال، عاد يوسف وجلس على الكرسي المقابل لي وقال:

– الآن جاء دورك في الخطة يا أحمد.

لم أكن أعرف ما يقصده بكلمة "دورك" بالضبط، لكن هذا لم يمنع شعور الحماسة أن يتغلغل في نفسي، وقلت فرحًا:

– هل سنحل القضية؟

بدا على يوسف أنه يجهل ما أقول بالفعل مما أصابني بالدهشة، وأجابني بصدق:

– قضية؟.. هل تقصد تلك القضية المتعلقة بجريمة القتل، لا هذا أمر آخر.

– أمر آخر؟

– نعم، الانتقام من ذلك الرجل الذي حاول اختطافي وروعك في أول لقاء بيننا.

– عدلي.

– بل عادل، فهو الذي يقف خلف كل تلك الأمور، لقد كان يتحرق شوقًا ليأخذ الجوهرة بشتى الطرق.

صمت يوسف قليلًا وبدا عليه الندم على كلمة "الجوهرة" التي نطقها، فقد خرجت سهوًا على ما أعتقد، فعلى الرغم من دقته الشديدة وقدرته الهائلة على الكتمان وحرصه الشديد، إلا أن كل هذا لا يجعل منه ماكينة تعمل دون توقف أو خطأ، فهو في النهاية بشر،

في تلك اللحظة قلت لنفسي حتى تهدأ حالتي العصبية "لا تخجل، فحتى يوسف فهمي يخطئ"، نطقت أخيرًا:

– إذن ما هي المهمة يا يوسف، وما هذا الدور الذي تتحدث عنه؟

– لقد أخبرني عادل للتو أنه غير مسئول عن تلك المطاردات التي ضايقتني بل وضايقتك أنت أيضًا، ولا تنخدع بتظاهري بتصديق كلماته التي ألقاها علينا مثل الثعبان الخبيث، وهذا درس آخر عليك أن تتعلمه يا أحمد، عليك أن تظهر للكاذب أنك تصدقه، حتى إنك تظهر له ذلك بنفس القدر الذي تظهره للصادق حين يتحدث، حتى يطمئن لك ويتمادى في كذبه، فهو لم يكتف بما فعله بل أراد توريطي مع عدلي كاسب ظنًا منه أني لا أعرفه، أو أعرفه لكن لا أعرف مدى قوته، أعتقد أنه فعل هذا مدفوعًا بخلاف مع عدلي كاسب في تجارتهم التي هي أمر من مصلحتك أن تجهله يا أحمد، لكنه في النهاية أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، أراد أن يجعلني أصطدم بعدلي كاسب فيتخلص مني وربما يرجع لاسترجاع أمواله مرة أخرى مني، أو أن يشغل عدلي بشخص مثلي ليتفرغ هو لضرب تجارته:

– وكيف استنتجت كل هذا؟

– لقد سمعت من شخصية مرموقة في أثناء تواجدي في حفلة ما، أن عدلي كاسب وعادل يجمعهما تاريخ سري من العداء الرهيب، على الرغم من الود الذي يتظاهران به في العلن، وسمعت أيضًا أن عدلي كاسب مهتم بالحصول على تلك الجوهرة التي كانت بحوزتي، لكنه لم يعرف قط أنها بحوزتي إلا مؤخرًا ولهذا كثف يوسف جهوده

للحصول على الجوهرة:

لم أعد أفهم ما الذي يريده يوسف مني بالضبط، فهؤلاء الأشخاص خطرين جدًا ولا أحب أن أجتمع باسم واحد فيهم في جملة واحدة، لكن على الجانب الآخر أنا واثق من أن يوسف يتملك خطة جهنمية لما يريد أن يفعل، سألت يوسف:

– إذن ماذا تريد مني الآن بالضبط بعد أن أخرجت رقم عدلي كاسب، هل تريد أن أتصل به وأخبره أنني رجل يريد خدمته وأن عادل يمتلك الجوهرة الآن وأغلق الخط قبل أن يكتشف شخصيتي:

هز يوسف رأسه نافيًا ثم قال:

– بل ستتصل به الآن، لتخبره أنك أحمد أباظة مساعد يوسف فهمي، وأنك رأيتني أبيع تلك الجوهرة اليوم لعادل مرغمًا، وأنك تقوم بهذا بدافع شخصي منك لرغبتك في الحصول على ثقة رجل هام مثله، لكن لا تخبره أن عادل دس باسمه في المحادثة اليوم، يكفي أن تخبره أن الجوهرة الآن مع عادل وهو فورًا سيكلف رجاله بالتحري عن الأمر حتى يتأكد منه.

– هل تعتقد أنه سيصدق هذا الأمر عندما أخبره عن عملي عندك، والسؤال الأهم هل سيقتنع بأنك لم تزيف كل هذا الأمر وتحاول الوقيعة بينه وبين عادل؟

– سؤال جيد، أولا لا فائدة تعود على من الوقيعة بينهما، ثانيًا هو سيكتف المراقبة ليتأكد من صدق حديثك، ثالثًا ستخبره أن عادل أعطاني مبلغًا ضخمًا من المال وأنني طالبته أن يسحبه من حسابه

البنكي اليوم لأتأكد أنه غير مزور، سيسأل عدلي من موظف البنك وهكذا سيتأكد من القصة كلها، وفوق كل هذا فلا أحد يعرف بأمر الجوهرة غيرنا وأنا لن أخاطر بإخبار مساعدي الجديد عنها.

لم أتمالك نفسي وانفجرت ضاحكًا، لم يفهم يوسف السبب وآثرت ألا أخبره للحفاظ على ماء وجهي، فقد ظننت أنه وقع في خطأ أخيرًا، لكن يبدو أن حتى خطأ يوسف فهمي قد يصبح مدبرًا، وبالفعل أمسكت بالهاتف والقلق يتملكني، وشرعت في تنفيذ الخطة، أجابني وليد القط مدير مكتب عدلي كاسب، قلت له:

– أريد إخبار السيد عدلي كاسب عن أمر خطير.

أجابني بضحكة ساخرة مصحوبة بسؤال:

– من يتحدث عبر الهاتف؟

– أخبره أن الأمر يتعلق بيوسف فهمي، والأستاذ عادل أدهم، وأن هناك شيئًا يهمه للغاية قد يضيع من يده إلى الأبد.

عندما نطقت تلك الأسماء صمت وليد وجاء صوته مرتعشًا وهو يقول:

– سأوصلك الآن بالسيد عدلي.

مضت ثوانٍ فقط قبل أن يجيبني عدلي كاسب بهدوء غير متوقع:

– من أنت؟ وماذا تريد أن تقول؟

تمالكت أعصابي بصعوبة ويوسف أمامي يحفزني على استكمال الخطة، وبالفعل قلت ما اتفقنا عليه نصًا، وقد سألني عدلي:

– هل أنت متأكد، ستدفع ثمنًا باهظًا لو كذبت على عدلي كاسب؟

– أنا واثق من الأمر يا أستاذ عدلي، وأتمنى أن تتأكد بنفسك عن طريقة مراجعة حساب عادل أدهم البنكي، فقد سحب منه مبلغًا ضخمًا كان هو ثمن الصفقة، ناهيك عن معرفتي بأمر الجوهرة، فحتمًا يوسف فهمي لن يخاطر بأن يشارك أمرها معي.

صمت عدلي كاسب قليلًا، ثم قال:

– حسنًا.

أضفت من نفسي:

– أتمنى أن تكافئني على صدقي معك في النهاية، على الرغم من عدم رغبتي إلا في كسب ثقتك.

– بالتأكيد.

قالها ثم أغلق الخط، تنهدت أخيرًا وشعرت أن الهواء أصبح أكثر برودة، ابتسم لي يوسف تلك الابتسامة الباردة المعتادة وقال:

– هل فكرت في الانضمام إلى المسرح؟

لم أضحك وظل وجهي يحمل بعض علامات الخوف مثل النظرات الشاردة، وعبوس الوجه فقال يوسف:

– لا تقلق، سيتأكد عدلي من المعلومة التي ألقيتها له في فمه دون عناء، ثم سينساك تمامًا ولن يفكر أبدًا في مكافأتك، لكن على الأقل سينساك تمامًا، ما يشغلني الآن هو المواجهة التي ستجمع عادل بعدلي، مواجهة الشيطان مع ملاك الموت، ستكون مواجهة شيقة

بحق.

تحول وجه يوسف إلى الغبطة المبالغ فيها، وابتسم فاغرًا فاه ومظهرًا أسنانه بوضوح لأول مرة، وبدا الجحوظ في عينيه مرعبا بحق، ثم لم يلبث أن عاد وجهه طبيعيًا باردًا باسمًا، مثلما هو الحال دائمًا، لكن تلك الغبطة ما زالت تؤثر فيه إلى درجة جعلته يتنازل عن تحفظه قليلًا في الحديث معي وأن يسرد في القول حينما قال:

– هل تعرف ما هي سياسة الثعالب في الغابة، إنها فقط تقوم بدورها المقدس في الوقيعة بين الأسود لتشاهدها تتصارع حتى الموت فيموت أحدهما، بينما خلسة تخطف هي نصيبها من الفريسة، وهو نصيب أقل من نصيب أسد، لكنه أكثر بكثير من نصيب ثعلب.

قلت في نفسي، هل أنا مخطئ لأتبع سبيل يوسف فهمي، أم أنه على حق وأنه ينبغي لنا أن ننتقم حين نرى الفرصة أمامنا للصيد، وأن ما فعلناه الآن لا يصل إلى درجة الانتقام، بل هو تشتيت انتباههم عنا لنتحرك بحرية دون خوف، تعلمت في صغري أن الثعلب دائمًا ماكر وشرير، أم ترى أن أحكام الطفولة لم تعد كافية للنجاة من صراعات الحياة، والآن جاء الوقت لأخذ الحكمة من فم الثعلب، هل الحكمة من ذلك المثل هي أن أبتعد عن طريق الأسود، أم أنه من دون قصد يحذرني من مصادقة الثعالب. في تلك اللحظة التي شغلني فيها الفكر قال يوسف مغيرًا دفة الحديث.

– دعك من كل هذا، أنا جائع.

فقلت له:

– مثل ذئب، أم مثل أسد؟

ابتسم كالسابق وصدر عنه لأول مرة ضحكة مسموعة تشبه كثيرًا صوت الضبع في حديقة الحيوان، ثم قال:

– بل دب، لأن لديه شهية أكبر.

ساد الصمت لدقيقة أخذتني فيها الأفكار مرة أخرى، ثم فجأة سألني يوسف:

– هل تجيد إعداد البيض المقلي؟

أجبته متعجبًا:

– لقد أخبرتك من قبل، لا.

– ليتك تغير إجابتك لمرة واحدة، لا فائدة منك فيما يبدو.

بينما يدور الحوار تذكرت وعدي للشاب سليم بأن أستمع إليه عند نزولي، فقلت مازحًا:

– يوجد فائدة، الاستماع لشخص ترفض الاستماع إليه.

تنهد يوسف وقال:

– الأمر ليس كما يبدو.

وقفت في مكاني وقلت:

– ما دام أنك ستجهز الطعام بنفسك كالعادة، فسأنزل للاستماع إلى سليم ريثما تنتهي، بالمناسبة هل يوجد عندك بسطرمة؟

– أجل، سأضع القليل منها على البيض.

– أخبرني أولًا، لماذا لا تريد الإنصات إلى سليم؟

تحرك يوسف مباشرة خارجًا من الغرفة ومتوجها صوب المطبخ كما أتوقع، وأجابني دون اهتمام كعادته:

– هذا أمر يطول شرحه، لكن سأخبرك بشيء ما، سليم وأخوه سليمان، لا توجد من ورائهما أدنى فائدة، هما شابان مخادعان، محترفان في الكذب.

– لكنه خيط، وعلينا البحث في كل الخيوط، لنصل في النهاية إلى حل تلك القضية.

ضحك يوسف وقال:

– ألم تقل إن القاتل هو الزوج، فلماذا تهتم الآن بقضية محلولة؟

– أنا متأكد أن عباس هو القاتل، لكن ما يشغلني هو ذابح العسكري، فلا أحد غيرنا يعرف أن العسكري تم ذبحه قبل الحريق مباشرة.

– ربما الفاعل هو لص قد ذهب ليسرق الشقة وقد تعثر في العسكري فقرر التخلص منه.

– كل الاحتمالات واردة لكن ماذا عن العسكري الآخر، هل مات أيضًا؟

خرجت إلى الصالة متوجهًا ناحية الباب ولم أشاهد يوسف، لكن صوته جاء من المطبخ قائلًا:

– هذا ما يشغلني أيضًا، حسنًا قم بالتحري حول الأمر من سليم

فربما شاهد شيئًا ما يفيد وإن كنت على المستوى الشخصي لا أظن ذلك أبدًا ولا أصدق هذا الشاب، لكن لا تطل في الأسفل فسمير على وصول وسيخبرنا برأي أهل المنطقة في الجريمة وما يعرفونه عنها، فقد ذهب إلى هناك منذ الصباح الباكر وسيرجع إلى هنا في تمام الرابعة والنصف ليطلعني على الأخبار، حتما ستحب أن تستمع بعد أن شغلتك القضية مثلي.

لم أعهد يوسف لطيفًا مذ عرفته أول مرة، لكن يبدو أن مزاجه أصبح جيدًا بعد أن تخلص أخيرًا من تلك الجوهرة التي لا أعرف عنها شيئًا، فليست عادته أن يبادلني حديثًا وديًا حول القضية من دون إثارة الغموض، لهذا سألته وأنا على الباب تمامًا:

– إذن سنستأنف التحقيق في القضية، لا مزيد من الألاعيب.

سمعت صوت قدح الزيت وهو يقول:

– دائمًا هناك ألاعيب.

ضحكت لأنه لم يخيب أملي قط، ثم نزلت وأغلقت الباب خلفي، عندما وصلت إلى مدخل العمارة لم أعثر على سليم، فخرجت إلى الشارع لأجده يقف جوار كشك، يتناول زجاجة مياه غازية، اقتربت منه فابتسم ودفع حساب صاحب الكشك وتحرك معي وهو يقول:

– كنت أعرف أنك لن تخدعني.

– أتمنى ألا تفعل أنت ذلك.

حك شعره وهو يقول:

– لا تقلق، أنا أعرف أن أستاذ يوسف حذرك مني، لكن هذه المرة أخي يقسم إن الأمر حقيقي.

نظرت إلى مكان ساعة يدي لأجده فارغًا لأتذكر أنني قد تركتها في المنزل، فسألت الفتى بعد أن لاحظت ساعة بلاستيكية في معصمه:

– كم الساعة؟

– إنها الثالثة والربع، لا تقلق نحن لن نتأخر فمنزلنا بالقرب من هنا.

تمشينا لنعبر شارعين متعاقبين، ثم في النهاية وصلنا إلى مقهى صغير يقع في الدور السفلي من عمارة مكونة من خمسة طوابق، طلب مني سليم بلطف:

– من فضلك اجلس هنا، سأذهب لإحضار أخي سليمان من المنزل، فهو يخشي الخروج بمفرده منذ الأمس.

وافقت بهزة من رأسي، فانطلق فورًا إلى أحد المنازل المجاورة، في تلك اللحظة جاء صبي القهوة فطلبت منه زجاجة مياه غازية لكن طالبته أن يجلبها دافئة فالجو بارد، لم تمضِ لحظات حتى جلبها ولم أكد أشرع في تناولها حتى وصل سليم ومعه أخوه سليمان، كان سليمان أكثر سمنة من سليم بقليل وعينيه مليئة بالشجن الغريب، كان وجهًا ملائكيًا جدًا، لكن حزينًا أيضًا، من اللحظة الأولى لاحظت أن سليمان هو الشاب صاحب الدراجة الذي تبعنا إلى شارع زيتون في السيدة زينب، بدت نظراته أكثر حدة عن آخر مرة رأيته فيها، قال سليم لأخيه لفك الجليد:

– هذا هو السيد... السيد... الذي لا أعرف اسمه، لكنه مساعد

الأستاذ يوسف وقد أرسله ليستمع منك على ما رأيته في...

وقبل أن يكمل عبارته رمقه أخاه بنظرة حادة جعلته يتوقف عن الحديث كأنه لا يصدقه فبادرت بالكلام قائلًا:

– أنا أحمد أباظة، مساعد يوسف فهمي، لقد رأيتك في شارع زيتون، وكنت تقود دراجتك الهوائية، وأنا هنا لأن أخيك أخبرني أن لديك معلومات تهم الأستاذ يوسف.

بدا أكثر اهتمامًا حين تحدثت، وكان اسم يوسف له مفعول السحر عليه، ففي كل مرة أنطقه فيه كانت تتبدل نظرة الحزن في عينيه إلى شغف، في تلك اللحظة بدأت الثقة تعود إليه مرة أخرى، لكنه لم يزل صامتًا، لهذا نظرت في ساعة الحائط المعلقة في المقهى لأجدها الثالثة والنصف، وأنا لا أريد أن أفوت حديث سمير فقلت:

– لا يوجد الكثير من الوقت يا سليمان، فعندي مقابلة هامة بعد قليل.

قلتها وكنت أعنيها، فعلى الرغم من اهتمامي بما قد يقول، إلا أني أهتم أكثر بشهادات أهل الحارة حول الجريمة التي سيجلبها لنا سمير اليوم، وقبل أن أصل إلى لحظة اليأس من سليمان وجدته يقول لأخيه:

– اذهب يا سليم الآن، ما أقوله ينبغي أن يظل بيني وبين الأستاذ.

وقف سليم من الدهشة لكن ليس ليذهب بل ليعترض على حديث أخيه وقبل أن ينطق حرفًا واحدًا رمقه سليمان بنظرة ذات معنى، فتنهد سليم وغادر في صمت وهو يراقبنا بأعينه عن بعد، لم أفهم

لماذا أبعد سليمان أخيه عن المحادثة، لكنه ليس أمرًا يخصني، سألته:

– هل أنت الأخ الأكبر؟

– أجل أنا الأخ الأكبر.

– حسنًا، قل ما لديك.

التفت سليمان من حوله وحك شعره بنفس طريقة أخيه، ثم اقترب مني بكرسيه حتى كاد يلتصق بي، ثم أخذ يسرد بصوت خفيض:

– لقد كنت في شارع زيتون في تلك الليلة التي احترق فيها المنزل، ورأيتكم هناك في المقهى تتحدثون مع رجل غريب، سمعت من أحد المارة أن الجريمة تمت في ذلك المنزل، وقد ذهبت إلى هناك ووقفت أمام المنزل لكني خشيت من ذلك العسكري الذي يحرس المدخل فقد رمقني بنظرات شك جعلتني أتراجع قليلًا وأقف عند ناصية الشارع.

– لقد رأيتك هناك عند المقهى، لا جديد فيما تقول.

– الجديد أنني عدت مرة أخرى إلى المقهى فلم أجدكم، لكني أبصرت صديقكم السمين وهو يتحرك وقد راقبتكم حتى وصلتوا إلى منزل في الشارع المجاور لشارع زيتون، وشهدتكم تدخلون ذلك المنزل، على الأرجح أنكم صعدتم إلى السطح وقفزتم على المنزل حيث تمت الجريمة، كل هذا حدث قبل وقوع الحريق.

شعرت بالرهبة من ذلك الفتى، فهو شاهد على أمر ظننته مر دون

ملاحظة، فلم أمر في حياتي بمثل هكذا موقف، حياتي المهنية التي لم تبدأ بعد باتت في مهب الريح، ومغامرتي الأولى يبدو أنها لم تمر مرور الكرام، شعرت بحرارة في جسدي، لكن تمالكت أعصابي التي بدأت بالفعل في الانفلات وقلت:

– هل تبتزني؟

– بالتأكيد لا، فالأستاذ يوسف ذهب إلى هناك من أجل التحقيق في القضية ولا شك في ذلك، أنا فقط أسرد الأحداث بترتيبها.

تنفست الصعداء وقلت:

– أكمل.

– بعدها أدركت أن الأمر يستدعي وجودي أمام منزل الجريمة من أجل مراقبة الأوضاع فعدت إلى هناك، وبعد مرور بعض الوقت وجدت ضابطًا لا أعرف رتبته تحديدًا وصل إلى هناك، وأخذ يتحدث مع العسكري قليلًا ثم فجأة انقطع التيار الكهربائي عن هذا المنزل بمفرده وسرعان ما عاد التيار مرة أخرى، ساد التوتر في المارة إلى درجة جعلتهم يركضون خارج الشارع، خفت أن يلاحظني العسكري فتحركت مثلهم لكن عندما رأيت العسكري والضابط يصعدان إلى أعلى ركنت الدراجة عند ناصية الشارع وعدت أمام المنزل مرة أخرى، دخلت في مدخل المنزل المقابل له وجعلت أراقب المدخل وقلبي يهتز من التوتر.

بدأ التوتر في تلك الأثناء يسيطر على سليمان مرة أخرى وكأنه يسترجع الماضي بنفس انفعالاته، لم أكن وضعت زجاجة المياه

الغازية في فمي فأعطيته إياها، رشف منها قليلًا ثم عاد ليستكمل حديثه:

– مر الوقت وأنا في مدخل ذلك المنزل، حتى نزل الضابط بمفرده من الأعلى، راقبته فوجدته يتلفت يمينًا ويسارًا والقلق واضح على محياه، وانطلق مسرعا خارج الشارع، لا أعرف لماذا راودتني الشكوك حول ذلك الضابط، ربما لعدم نزول العسكري معه، أو لقلقه الواضح وسرعة تحركه خارج الشارع كأنه يهرب، لا أعرف لكنه أمر غامض حتى بالنسبة لي، تحركت في أثر ذلك الضابط لكن دون أن يلاحظني، لحسن حظي أنه اتجه إلى نفس مكان وجود دراجتي الهوائية، ركبتها وتحركت خلفه لكن محافظًا على مسافة مناسبة تفصلني عنه حتى لا يشك في أمري، أخذ يمشي وأنا خلفه بالدراجة أتحرك حتى وصل إلى شارع جانبي شبه مظلم، وهناك وجدته يخلع ملابس الشرطة وكان يرتدي أسفلها ملابس مدنية كاملة، ووضع زي الضابط في كيس أسود وأخذ يمشي حتى وصل إلى صندوق قمامة وهناك ألقى بالكيس ثم أشعل عود ثقاب وألقاه في صندوق القمامة ليشعلها، ثم أغلق الصندوق وأنطلق في طريقه مبتعدًا عن ذلك الشارع.

سكت قليلًا فقد كان متوترًا جدًا، تناول رشفة أخرى من المياه الغازية وقد أطال في شربها، شعرت أنا أيضًا بالتوتر فعلى الأغلب أنا على قرابة خطوات من حل اللغز الذي حيرني أنا ويوسف، هذا بالتأكيد إذا كان سليمان صادقًا فيما قال، قلت له:

– أكمل.

– كان يتحرك بسرعة للغاية عند المنعطفات، وفي تلك الأثناء أسرعت بالدراجة خلفه خوفًا من أن أفقده، وفي أحد المنعطفات المظلمة عند شارع خالٍ من المارة وجدته يقف وينظر في وجهي، فأسرعت مبتعدًا من جواره بالدراجة ولم يتمكن من إسقاطي عنها، لكنه شاهد وجهي ورمقني بنظرة حادة أرعبتني، لم أتبين من ملامحه إلا عينيه الحادتين وبشرته البيضاء، وبينما أبتعد عنه أشار إليّ بيده إشارة "الوداع"، مما جعل قلبي يخفق بسرعة، قدت الدراجة الهوائية عائدًا إلى هنا مسرعًا، ولم أفارق غرفتي من وقتها إلا الآن، ولا نية لي بمغادرة المنزل خلال الأسابيع التالية كلها حتى يقبض السيد يوسف على ذلك المتهم وأنا واثق من أنه سيفعل، لكن حتى ذلك الحين فالحذر واجب والاختفاء عن الأنظار أمر لا بد منه.

– ما كان لون عينيه؟

– أسود.

– صفه لي.

– طويل القامة، شديد البنيان، ولم أتمكن من تحديد ملامح وجهه لأنه كان يتحرك بسرعة

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الرابعة والربع، كيف مر الوقت هكذا بسرعة، أردت طرح المزيد من الأسئلة على سليمان، لكن لا أريد إضاعة المزيد من الوقت فقد حصلت على كافة التفاصيل التي يعرفها هذا الشاب، أشرت إلى صبي المقهى وحاسبته على زجاجة المياه الغازية ثم قلت:

– شكرًا يا سليمان، سأخبر السيد يوسف بكل هذا.

رشف الفتى المزيد من زجاجة المياه الغازية قبل أن يسأل:

– هل تصدقني؟

– حكايتك تبدو مترابطة جدًا.

– لكن الأستاذ يوسف لن يصدقها، أقسم لك إنها الحقيقة.

في تلك اللحظة تحركت بسرعة ناحية منزل يوسف على الرغم من توقعي بعدم وصول سمير في موعده، لكن في النهاية أنا لا أريد التأخر على الطعام فمعدتي بدأت بالصراخ حقًا، صعدت إلى شقة يوسف وطرقت الباب ففتحه سمير، فمه مليء بالبطاطس المقلية كما يبدو، عندما وصلت إلى السفرة بسرعة وجدت كل الأطباق فارغة تمامًا ما عدا قطعة من الخيار، معدتي فارغة تمامًا ولهذا أصبت بالصدمة من هول المشهد، قلت:

– أين الطعام؟

أشار يوسف إلى سمير، الذي ابتسم بسذاجة الأطفال، ثم أشار يوسف ناحية المطبخ، وغمز لي وقال:

– يمكنك أن تبحث هناك.

دخلت مسرعًا لأجد شطيرة بيض مقلي على طاولة المطبخ، شرعت في تناولها وأنا أتحرك مرة أخرى ناحية الصالة وقلت:

– هل سرد سمير ما عرفه عن تلك القضية من أهل شارع زيتون؟

أجاب يوسف بنفاد صبر:

– ليس بعد، لم يرد أن يتحدث قبل أن يتناول الطعام.

قال سمير دون مبالاة:

– الآن أنا جاهز.

سأله يوسف:

– قل ما عرفته بشكل عام عن شخصية عباس، وعن علاقته بأخيه وزوجته.

ارتاح سمير في جلسته وبدأ يسرد مثل شهرزاد:

– عباس هو تاجر ذهب، لديه محل في الصاغة، متزوج من فتحية القتيلة منذ قرابة السبع سنوات، كان قبلها متزوجًا من امرأة عاقر وقد توفاها الله بعد زواجه من فتحية بسنة واحدة، لكن فتحية لم تجلب له ابن أيضًا، فأدرك أهل الشارع أن العيب في عباس، ذلك على الرغم من تأكيده الدائم أن تقاريره الطبية كلها سليمة، أما بخصوص شخصية عباس فهو رجل غير محبوب من أهل الشارع، فهو بخيل لأقصى درجة على الرغم من ثروته التي تضاربت الأقاويل حول ضخامتها، الغريب أن رغم بشاعة الحادثة إلا أن أهل الشارع لا يشعرون بالسوء تجاه ما حدث، بل على العكس، فالبعض كان يكتم شماته في عباس.

– لماذا؟

– يقال إنه مرابي، يقرض الناس الأموال ويطالبهم بردها مع زيادة غير معقولة، حتى الحلاق أخبرني أنه قد استدان منه مرة ليجدد

واجهة المحل وقد طلب منه عباس فائدة تفوق العشرة بالمائة، وإذا ما تأخر عن السداد قد تصل إلى ما هو أكثر من ذلك، لهذا فهناك شبه إجماع من أهل الشارع، بل أهل المنطقة كلها أن هذا عقاب الله له، هناك أيضًا أمر مهم بخصوص عباس، لم أكتفِ بما سمعته من أهل الحارة فذهبت إلى الصاغة، وهناك عرفت أنه رجل مكروه لأبعد الحدود أيضًا، وقد سمعت هناك بعد العبارات عن أنه انتقام الله منه، لقذ ذهبت الحادثة بعقول الناس فيما يبدو.

أردت إشعال سيجارة لكن يوسف منعني بإشارة منه، ثم سأل سمير:

– وماذا عن زوجته وأخيه؟

– زوجته امرأة سيئة السمعة، لكن الناس لم ترد الحديث عن ذلك الأمر قط، لكن سمعت أحدهم يقول أنها السبب وراء طلاق عباس من زوجته الأولى، أما أخيه فهو عربيد ومرابي أكثر من أخيه، فهو من بدأ مسألة إقراض المال تلك، رجل غير متزوج يملك متجرًا لبيع الملابس الجاهزة وثروة أضخم من أخيه قد كونها من العمل غير الشرعي، وقد سألت أهل المنطقة عن سلوكه لأعرف أنه رجل غير محترم، لكنه تاجر بارع، يخرج كثيرًا من المنزل، إضافة إلى زياراته المتكررة للملاهي الليلية.

اندهشت من كم المعلومات التي عرفها سمير عن عباس في هذه المدة الضيقة، سألت:

– لقد عرفنا تاريخ الرجل في يوم واحد.

لم يبد يوسف مهتما بعبارتي، ثم سأل سمير:

– هل سمعت من أحدهم شيئًا حول شكه في زوجته؟

– الجميع يخشى الحديث عن هذا، لأن الشائع أن زوجته قد خانته مع أخيه ولهذا قتلها، لكن عندما تظاهرت أنني مخبر شرطة وجلست مع حلاق من المنطقة، أجابني أن الرجل كان يشكو من فتحية مر الشكوى، وكان يمنعها من الخروج بسبب شكه في خيانتها له، لكنه لم يقدر على فراقها قط.

ابتسم يوسف بمكر، ثم نظر ناحيتي وقال:

– لقد بدأت الخيوط في الترابط.

انتظر يوسف قليلًا حتى انتهيت من تناول الشطيرة، نظر يوسف ناحيتي وقال:

– هل أخبرك سليم بأمر مفيد؟

– سليمان؟

قلت الاسم فبدا على يوسف عدم الاهتمام، لكن الأمر تبدل عندما سردت له الحوار كاملًا، بدا غير مصدق في البداية، لكن يوسف فهمي أحيانًا لا يمكن فهم تعبيرات وجهه لهذا لم أعول كثيرًا على هذا، وانتظرته حتى تحدث أخيرًا بعد طوال تفكير وقال:

– يبدو أن الخيوط تجتمع مع بعضها.

بينما يوسف مستغرق في التفكير، تبادلت حديثًا مع سمير وقلت له:

– أنا متأكد أن تلك الأدلة كلها تشير إلى وجود مجرم آخر، فبعيدًا عن التحليل التقليدي بأن عباس قتل أخيه وزوجته بسبب الخيانة إلا أن هذا لا يفسر وجود الرجل الغامض هناك في مسرح الجريمة، ولا يوجد دليل واحد يقودنا إليه، إضافة إلى عدم معرفتنا بالعلاقة التي تربطه بالمتهم الأصلي، لكن على الأقل فقد أصبح لدينا الآن فهم أكبر لدافع الجريمة وهو الخيانة على ما يبدو أو ربما الانتقام حتى، لنقم بتحليل ما لدينا من معلومات ونقارنه بشهادات أهل الحارة، فربما يقودنا تحليلنا إلى معرفة لذلك الشخص المجهول، فربما هو عشيق الزوجة، أو رجل مدين لعباس بالمال وقد ذهب إلى المنزل في الوقت الخطأ، لكن ما دافعه لتشويه الجثة أو الذهاب إلى مسرح الجريمة؟

فأجاب سمير:

– ربما ذهب إلى هناك من أجل السرقة وليس القتل، ومجرد وجوده هناك كان على سبيل المصادفة وعندما اكتشفه العسكري قام بذبحه.

أجبت دون تردد:

– لا يبدو الأمر منطقيًا.

بدا على سمير أنه تذكر أمرًا مهمًا فجأة، فقد نظر إلى يوسف بسرعة وقال:

– هناك أمر آخر، لقد قابلت فتحي غزلان في مكان الحادثة لأنه ذهب بنفسه ليحضر تقريرًا ضخما حول القضية، وقد ذكر شيئًا حول

أن تلك الجريمة مشابه لجريمة أخرى قد نشر عنها هذا الشهر لكنها حدثت في الجيزة، ويطلب منك أن تحدثه.

اتجه يوسف إلى غرفة مكتبه فورًا، واتصل على رقم فتحي في المنزل فأخبرته زوجته أنه لا يزال في الجريدة، فطلب رقمه في الجريدة واتصل به حتى أجاب، ودارت بينهم محادثة كان دور يوسف فيها الإصغاء أكثر من الحديث، لكنه قال فجأة:

– هل تخبرني أن جثة الأخ - وليد حامد - قد تم تشريحها من قبل الأطباء الشرعيين ليكتشفوا أن الكبد مقطوع منها جزء، وهو أمر مشابه لأربعة جثث أخرى لرجال قتلوا في القاهرة في خلال الثلاثة أشهر الماضية وقد كانت هناك رسوم غريبة أيضًا في مواقع الجريمة كلها مشابهة لبعضها؟

لم نسمع ما قاله فتحي غزلان لكننا سمعنا يوسف ينفعل قائلًا:

– كل الجرائم تم حلها بالفعل وأغلقت قضاياها، ولا توجد جريمة واحدة منهم ضد مجهول، هل تمزح يا فتحي؟! هذا غير معقول، سأرسل إليك سمير ليجلب كل التحقيقات الصحفية التي قمت بها حول هذا الأمر في جريدتك، ولا يهمني هل هو سبق صحفي لعين أم لا فأنا لن أخبرك بحرف واحد إلا عندما تطلعني على تلك المعلومات التي بحوزتك، مد سمير بكل المعلومات وسيظل الأمر سرًا بيننا من أجل المحافظة على تقريرك الصحفي.

ثم أغلق يوسف الهاتف وقال:

– اللعنة على الصحافة.

ثم نظر ناحية سمير ونطق:

– اذهب فورًا يا سمير واجلب لي تلك التحقيقات منه، سينتظرك في المكتب، لا ترجع إلى هنا من دون تلك التحقيقات فالأمر خطير.

أجاب سمير بعد أن تثاءب:

– حسنًا، سأذهب الآن.

لم أفهم شيئًا فسألت مباشرة:

– هل تعتقد أن تلك الجرائم مرتبطة؟

أجابني:

– ربما؟

– وماذا عن قضية عباس هذا، كيف يمكن للجرائم أن تكون مترابطة بينما كل القضايا محلولة!

– لا أعرف، لكنه يبقى احتمالًا قائمًا

– ومشكلة المنزل المحترق تلك هل حللتها؟

ابتسم يوسف مثل ذئب مرة أخرى، والتمعت عيناه بشكل عير مسبوق، كأنه زجاج يعكس الضوء، نظر ناحية سمير الذي هم بالخروج فعلًا، وعندما تأكد من مغادرته قال يوسف مبتهجًا:

– لقد حللت القضية بنسبة كبيرة، لكن أريد الحصول على المزيد من المعلومات، فحدسي يخبرني أن هناك ضلعًا ناقصًا، أن هناك شبح ما يتحرك في الظلام ولا أحد يعرفه، يتحرك بعناية بالغة ودقة

فائقة:

– من أين يمكن الحصول على مزيد من المعلومات؟

في هذه اللحظة أخرج يوسف دفتر يومياته من جيبه، فتحه وأجاب:

– ابحث في دليل الهاتف عن هذا الاسم.

ذهبت بالفعل إلى دليل الهاتف فقال:

– الطبيب طارق نور عيد، ابحث عن رقم عيادته، هي في حي الزمالك وإذا لم تجدها فابحث عن رقم هاتف المنزل.

بدأت أبحث عن الاسم بالفعل، ورأسي منشغل بشأن دفتر يوميات يوسف، فمن يكون هذا الطبيب، ومن أين أتى باسمه، وعندما قتلني الفضول سألته:

– من هو هذا الطبيب؟

– هذا طبيب نفسي، قرأت اسمه في مذكرة عباس، وقد كان يزوره باستمرار في عيادته بالزمالك فيما يبدو، فقد ذكره أكثر من مرة وفي أكثر من صفحة، هل وجدت الاسم؟

– لقد وجدته، لكن ليس هاتف العيادة، وجدت هاتف المنزل على الأغلب.

لم يبدُ يوسف مرتاحًا لكن أيضًا ليس منزعجًا، لا يزال في حالته الغامضة تلك، والتي لا يمكن فيها تحديد مزاجه، جلس جوار الهاتف وطالبني أن أناوله دليل الهاتف ليتصل بالرقم ففعلت، وبالفعل قام

بالاتصال وأجابته سيدة كما فهمت من عبارته حين قال:

– أريد رقم هاتف العيادة من فضلك سيدتي؟

طالبني يوسف بإحضار ورقة وقلم من فوق المكتب لتدوين رقم الهاتف، نظرت فوق مكتبه لأجد قلمًا فأخذته، لكن المشكلة كانت في الورقة، فلم أجد ورقة فارغة تمامًا، وأخشى أن أقطع ورقة من دفتر ما فيعنفني يوسف، وبينما أنا في هذا المأزق رأيت تذكرة حديقة الأسماك ملقاة جوار الصندوق الخشبي فوق المكتب، أمسكت بالورقة وكتبت في الناحية الفارغة الرقم الذي أملاني إياه يوسف، أغلق يوسف الخط مع السيدة وطالبني بالرقم فقلته ثم وضعت الورقة في جيب معطفي بعد أن كتبت فوق الرقم "الطبيب طارق نور عيد"، أجاب الممرض على يوسف غالبًا، ولم تدم المكالمة لأكثر من دقيقتين ثم أغلق يوسف الخط بعد أن شكره وقال لي:

– الطبيب في العيادة حتى الثامنة مساءً، ولا يوجد سوى حجز واحد مؤكد لهذا فهو على الأرجح متفرغ، يجب أن نذهب إلى هناك فورًا، لقد تحدثت مع الممرض وأملاني العنوان وهو ليس ببعيد، يجب أن نتحرك الآن.

ثم نزلنا من المنزل متجهين إلى تلك العيادة، ركبنا السيارة وقبل أن نتحرك نظرت عبر نافذتها الخلفية لأشاهد سليم جالس فوق دراجته الهوائية عند الناصية فرجحت أنه سيتبعنا إلى حيث نذهب فلم أخبر يوسف حتى لا يغضب منه، وتركت الأمور تسير على طبيعتها لكن لحسن الحظ فعندما تحركنا لم ينطلق سليم خلفنا.

6

وصلنا إلى العنوان المذكور في حي الزمالك، العيادة تقع في الطابق الرابع من عمارة تتألف من طوابق سبعة، العيادة لها شرفة بيضاء الطلاء ومعلق فيها لافتة تحمل اسم الطبيب وتخصصه بالخط العريض "طبيب نفسي" كل هذا واضح بفعل إضاءة شديدة من لمبة نيون، صعدنا إلى الأعلى ودلفنا إلى العيادة لنجدها مكونة من صالة وغرفتين، والمكان يشبه حجرة في متحف، الطلاء أبيض ممزوج بالأزرق، الإضاءة بيضاء والحيطان نظيفة للغاية، ويوجد ثلاث لوحات زيتية بديعة لأماكن طبيعية وقصور، الممرض القائم بأعمال السكرتير يجلس خلف مكتب خشبي صغير يضع فوقه بضعة ملفات فوقها مجلة مصورة يطالعها باهتمام، ولا يوجد مرضى على مقاعد الانتظار، كان المكان خاليا كأنه معد مسبقًا لاستقبالنا، تحرك يوسف بخطوات واثقة ناحية الممرض وسأله:

– هل الطبيب طارق نور هنا، أنا المحامي يوسف فهمي، وهذا زميلي أحمد أباظة، نحن لسنا هنا من أجل الكشف، نحن هنا لمقابلته من أجل أمر مهم خاص بمريض لديه.

أجاب الممرض دون أن يرفع نظره عن المجلة:

– الطبيب في الداخل، لكن معه حالة، انتظروا خروجها ثم أخبره بوجودكم.

جلسنا على مقاعد الانتظار وهي خشبية تشبه الأنتيكات، كل شيء هنا يبدو مثل الأنتيكات، المقاعد الخشبية، السجادة العتيقة

في الأرضية، حتى مكتب الممرض يبدو عليه القدم الشديد، وهناك رائحة ذكية في المكان على الرغم من عدم وجود زهور، تلك الرائحة العطرة شديدة وكثيفة لدرجة جعلتني أشعر أنها تقتحم أنفي، انتظرنا حتى خرج من الداخل رجل طويل القامة وله شعر أسود داكن، له عينين داكنتين مثل الليل وابتسامة لا تفارق وجهه، مشيته فيها عرجة بسيطة جعلته كاد يتعثر في السجادة، لكنه استعاد توازنه وانطلق بعدها للخارج، أشار إلينا الممرض بالانتظار حتى يطلب من الطبيب دخولنا، دخل إلى غرفة الكشف ثم عاد إلينا بعد دقيقة وقال:

– تفضلوا.

نظر يوسف ناحيتي ونحن نقف وهمس لي:

– لا تتحدث معه، تابع تصرفاته وتعبيرات وجهه فقط.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج دفتر يومياته وقلمًا وناولني إياهم وقال:

– ضعهما في جيبك.

فعلت مثلما أمرني، ودخلنا إلى غرفة الكشف وقد بدا مظهرها قريب الشبه بالصالة، إلا أنها تحوي المزيد من الأثاث، تتألف محتوياتها من مكتب فخم يجلس خلفه الطبيب، وجواره خزانة، وأريكة عصرية كبيرة الحجم تكفي أربعة أشخاص، وثلاثة مقاعد تشبه مثيلاتها في الصالة، مع وجود أربع لوحات فخمة، وقف الطبيب لمصافحتنا من خلف مكتبه وهو رجل طويل القامة، له

عينين سوداوين واسعتين، وشعر أسود لامع، ملامحه حادة لا تشي بعمره، ونظراته باردة لا تتناسب مع ملامحه الوديعة، قال الطبيب:

– مرحبًا بكما، تفضلًا.

أجاب يوسف:

– مرحبًا، دون مقدمات طويلة أنا المحامي يوسف فهمي وهذا مساعدي، نحن هنا بخصوص قضية تخص مريضًا عندك.

أشار إلينا الطبيب ناحية الأريكة العصرية المريحة والمفروشة بقماش رمادي وقال:

– دعونا نجلس على راحتنا أولًا.

توجهنا إلى الأريكة، جلسنا أنا ويوسف عليها، وجلس طارق على كرسي خشبي بني اللون، يبدو فخمًا للغاية بسبب النقوش الجميلة عليه باللون الأحمر، بعد أن جلسنا أشار يوسف إلى لوحة ضخمة معلقة خلف مكتب الطبيب وهي لقلعة مهيبة وقد رسمت بالزيت على الأرجح وكانت لوحة بديعة بحق وتسرق الأنظار، وقال:

– هذه اللوحة رائعة بحق، هل هي لمكان حقيقي؟

– نعم.

ثم أشار يوسف إلى بقية اللوحات التي تصور قصورًا وقال:

– لديك ذوق فنان فعلًا، يبدو أن لديك شغفًا بالقصور والقلاع أيضًا، هل كلها حقيقية أيضًا؟

أجاب الطبيب:

– معظمها.

– أنا أيضًا أحب الفن واللوحات.

ابتسم من دون إجابة ثم قال:

– تشرفت بوجودكم يا أستاذ يوسف، عن أي مريض تتحدث؟

قال يوسف بنظرة ساخرة:

– هل تقرأ الجرائد؟

أجاب الطبيب دون أن تتبدل ملامحه الودية:

– نعم، أحيانًا.

لم ينظر أحدهما ناحيتي ولو مرة واحدة، فصرت مثل ضيف غير مرغوب فيه، لكني عكفت على ملاحظة تعبيراتهما في أثناء الحديث وخاصة طارق كما طلب يوسف، هذه المرة نطق يوسف بمخارج ألفاظه الواضحة الرنانة:

– المريض عباس حامد، تاجر الذهب في الصاغة، لقد...

قبل أن يستغرق يوسف في سرد الحادثة أشار طارق بيده إليه أن يتوقف وقال:

– لقد سمعت عن الحادثة المؤسفة بالفعل.

– إذن فقد اختصرت الطريق، أنا المحامي المنتدب للدفاع عنه، وأتمنى أن تمدني ببعض المعلومات الخاصة بالحالة النفسية والعقلية للمريض، وبعض التفاصيل الخاصة به.

– متأسف لكن هذا أمر محظور على الأطباء، يمكنني فقط أن أجيبك على الأسئلة التي أعتقد أنها لا تخالف سياسة الخصوصية الخاصة بالمريض وأنها مفيدة في القضية.

أجاب يوسف بسخرية:

– يبدو أنك خبير في مقابلة المحامين.

– لا أنا فقط ملم بالجانب القانوني لعملي.

– حسنًا، سأقوم بطرح بعض الأسئلة ويمكنك الإجابة على ما تراه مناسبًا ومقبولًا من الناحية القانونية.

– أكيد.

– هل يزعجك تدوين زميلي لإجاباتك؟

– أبدًا.

أشار إليّ يوسف وقال:

– من فضلك دوّن الإجابات.

أشرت بالإيجاب، أخرجت دفتر يوميات يوسف، بحثت عن صفحة فارغة وبدأت في التدوين.

– هل كان الأستاذ عباس يشك في سلوك زوجته؟

تظاهر بالتفكير، ثم أجاب:

– من الممكن الجزم بذلك، فقد قالو إنه قتلها نتيجة لهذا الشك.

– لا أنا أقصد قبل أن يرتكب الجريمة، هل كانت زياراته لك تتعلق

بشكه المستمر في زوجته؟

– يمكن القول بأن بعض من زياراته لي كانت بهذا الشأن، لكن ليس كلها.

– هل كان يشك في خيانتها له مع أخيه؟

– لقد ذكر اسم وليد أكثر من مرة، لديه شعور بأن أخيه أفسد حياته بطريقة أو بأخرى لكن لا يمكنني مشاركة الأمر معك، وقد شك في خيانته أكثر من مرة بالفعل.

– هل تخبرني إذن بأن عباس، كان يشك في خيانة زوجته له مع أخيه مما دفعه إلى ارتكاب هذه الجريمة؟

– يمكنني تأكيد موضوع الشك، أما الجريمة فأنا لست مسئولًا عن تبريرها.

– هل تعتقد أنه قد ارتكب هذه الجريمة، أقصد من الناحية السلوكية، هل ألمح عباس ولو لمرة واحدة بأن لديه سلوكًا عدوانيًا سابقًا، أو أنه قد هدد أمامك بقتل زوجته وأخيه؟

تظاهر طارق بالتفكير، لكن ملامحه الودية لم تتبدل وهو يجيب:

– لم يهدد صراحة، ولا يمكنني الجزم بأمر ارتكابه للجريمة، لكن مما قرأته في الجرائد فيبدو أن كل الأدلة تشير إلى كونه قد ارتكب الجريمة.

– لقد سمعت أن المتهم كان مرابيًا، هل أخبرك شيئًا حول هذا الأمر؟

– أجل، لقد كان لديه إحساس داخلي بأنه مريض بهذا الداء وكان يكره نفسه لذلك، وكان يعتقد أن أخيه هو الذي علمه تلك التجارة المحرمة، وقد قال أكثر من مرة بأنه يعتقد أن الله يكرهه لهذا السبب وسوف يحدث له أمر سيئ بسبب أفعاله التي لا يرضى عنها الله، كان لديه شعور دفين بأن الله سوف يعاقبه بشدة.

– هل استخدم كلمة المحرمة أم أنها من إضافتك؟

– لا أذكر أنه استخدمها بالنص.

– هل كان بخيلًا؟

– جدًا، وقد اكتسب هذه الصفة من أخيه أيضًا كما يزعم.

– هل كان يتحدث كثيرًا عن أخيه؟

– جدًا، لقد كان متأثرًا به للغاية، في العديد من الجوانب.

– هل كان يغير من أخيه؟ أو يضمر له الضغينة والشر بأي حال من الأحوال؟

– لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال، لكن تصرفات أخيه كانت تثير استياءه.

قال يوسف بنبرة ساخرة:

– لقد سمعت أن أخاه كان يحب النساء جدًا.

ضحك الطبيب على طريقة يوسف الساخرة وقال:

– لقد قال عباس ذات مرة إن أخاه لديه حكمة يقولها دائمًا

ومفادها "المرأة هي السلعة الوحيدة التي تستحق الدفع من أجلها".

– يبدو أن لديك ذاكرة قوية، هل تتذكر كلمات مرضاك بهذه الدقة دائمًا؟

أجاب طارق ببرود ودون أن تتبدل ملامحه أو نظراته أو يهتز له جفن:

– أجل.

– هل أخبرك عباس عن أن لديه خبرة سابقة في التشريح، أو ذبح الحيوانات؟

– مطلقًا.

– هل كانت لديه كراهية لأخيه؟

– قلت من قبل إنني لن أجيب عن هذا السؤال، هو فقط غير مرتاح لتصرفاته.

– هل الأمر يتعلق بالمراباة، هل أراد قتل أخيه لأنه جعله مراب مثله؟

– لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال.

– هل تعتقد أن أخاه جدير بالكراهية؟

– هذا ليس من شأني.

– أنا هنا أريد معرفة رأيك الشخصي.

ابتسم طارق وقال بهدوء تام:

– لا يجب أن يفصح الطبيب عن رأيه الشخصي، وكما قلت هذا ليس من شأني.

قال يوسف بمكر:

– من وجهة نظري الشخصية فأخوه شخصية مريضه، يستحق الكراهية؟

لم يجب الطبيب فأكمل يوسف حديثه قائلًا:

– هل تعرف أن أهل المنطقة التي يعيش فيها عباس وأسرته لا يشعرون بالسوء عما أصاب عباس، بل على العكس تماما فالبعض لديه أسباب كثيرة ليقول إن ما جرى لهم هو عدالة الله، ويرون بأن هذه العائلة جديرة بالكراهية، هل ترى ذلك أيضًا؟

– هذا لا يهمني، أنا طبيب ولا أهتم برأي الناس في مرضاي، ولا يجب على الطبيب أن يقول رأيه بصراحة في مرضاه.

تظاهر يوسف بالجدية عندما قال:

– من فضلك ساعدني أكثر، فموقف المتهم في القضية غير جيد، الأدلة كلها تشير إلى أنه مرتكب الجريمة والإعدام مصيره حتى الآن، أنا أبحث عن طريقة للدفاع عنه.

وضع طارق قدمًا فوق الأخرى مستكملًا جلسته الهادئة الواثقة، وقال بنبره حاسمة:

– هل تعتقد أن المتهم مذنب؟

– أجل.

– لماذا إذن تدافع عن قاتل، من ناحيتي سأخبرك بشيء واحد فقط حول هذه القضية، أنا لا أعرف ما جرى ولم يخبرني بأي نية لديه في ارتكاب جريمة قتل، لكن أغلب الظن أنه قد ارتكب هذه الجريمة.

– هذا مؤكد لكن هل ارتكبها مدفوعًا بتلك الشكوك، أم أن حالته العقلية أثرت عليه؟

– هل تريد القول بأنه مجنون؟

– هذا ما جئت لسؤالك عنه، هل تعتقد أن حالته النفسية قد دفعته إلى الجنون، فتلك الجريمة لا يرتكبها إنسان عاقل.

– أنا طبيبه النفسي وأؤكد لك أنه لم يبدِ سمات المرض العقلي قط، ولم تظهر عليه علامات الجنون مطلقًا.

قال يوسف بنبره حادة:

– لماذا لا ترغب بمساعدة مريضك فأنت لا تدافع عنه في إجاباتك أبدًا؟

– أنا طبيب وهذا عملي، لو كان مجنونًا لقلت هذا لكن لا يمكنني الكذب أمام المحكمة!

– حقًا أنا مندهش فأنت لم تخبرني بأي شيء يساعدني في تبرئة المتهم، أو حتى تخفيف عقوبته بل على العكس؟ فكيف تعتبر نفسك معالجًا له بينما ليس لديك ذرة تعاطف معه.

– هذا يجعلني مندهش أيضًا من رغبتك في تبرئة متهم أنت

نفسك تعرف أنه مذنب.

– هذا عملي.

– لكنه ليس عملي أنا، هو مريض عندي لكن هذا ليس كافيًا حتى أدافع عنه فهذا ليس من شأني، أنا فقط أقول الحقيقة، أليس هذا ما يفترض أن أقوم به فقط؟ أم أنك تريد شيئًا آخر؟!

– لا أريد شيئًا آخر، أنا أريد فقط الدفاع عن المتهم.

– لكن القضية تبدو صعبة للغاية، تبدو كقضية خاسرة لمعظم المحامين، وهذا أيضًا يدل على أن رغبتك في توليها ليست لحلها فحسب، بل ربما الشهرة والأضواء، أو ربما لديك دافع آخر لا يعرفه أحد.

– حسنًا هذا يكفي.

أشار إليّ يوسف بأن أتوقف عن التدوين ففعلت، وضعت المذكرة في جيب معطفي، ورجعت إلى وظيفتي الرئيسية في مراقبة تعابير وجه طارق التي لم تتبدل قط فقد ظلت ودية ولم تفارق البسمة محياه، وقف يوسف ففعلت مثله، قال يوسف:

– لدي سؤال أخير.

– تفضل.

نظر يوسف إلى السجادة التي بدت من فرط دقة صناعتها كتحفة فنية فريدة من نوعها، ثم قال:

– لديك ذوق رفيع في الأنتيكات، فلماذا جلبت هذه الأريكة

العصرية؟!

ابتسم طارق مرة أخرى وقال:

– هذه الأريكة طبية خاصة باستقبال المرضى، فهي تجعلهم يشعرون بالاسترخاء.

– فهمت، هل عندك مانع إذا ما كررت زيارتي لك مرة أخرى، فربما يجد جديد في القضية؟

– أبدًا، لكن العيادة مغلقة منذ الغد ولمدة أسبوع لانشغالي بالسفر، لكن بعدها سأكون موجودًا لمزاولة عملي ومتفرغ لأي مقابلة أخرى منك.

– صحبتك السلامة.

قال يوسف كلمته ثم مد يده وصافح طارق ومثله فعلت، ثم غادرنا الغرفة، وبينما نحن في الصالة وجدنا الممرض يرش معطر الهواء على الرغم من شدة الرائحة بالفعل، إلا أن يوسف لم يعلق فقد ركز انتباهه على الغرفة الثانية المغلقة، ذهب ناحية الممرض وسأله:

– هل هذه الغرفة لطبيب آخر؟

فأجاب الممرض:

– لا، هذه غرفة الأرشيف، يحتفظ فيها الأستاذ ببعض المعدات، والسجلات الطبية للمرضى.

صافحه يوسف وانطلقنا خارج العيادة وقد شعرت بالراحة عند خروجي من هذا المكان، فالطبيب له حضور طاغٍ عجيب يجعلك

مسترخيًا للغاية، إضافة إلى نظراته الثاقبة التي تكاد تخترق الجلد وتنظر إلى عقلك مباشرة، والمكان برمته فيه نوع غريب من البرودة الشديدة، ربما ساهمت الابتسامات الباردة في هذا الشعور، لكن على كل حال فقد غادرنا أخيرًا وقد أصبحت لدي العديد من الأسئلة التي لا إجابة لها، فلم أفهم بعد ما فائدة ما قاله الطبيب في جمع معلومات بخصوص القضية ولا فائدتها في التعرف على المتهم الآخر الخفي الذي يبحث عنه يوسف، وبينما نحن ننزل الدرج إلى الشارع سألت يوسف:

– هل وصلت إلى جديد في القضية أو بخصوص شخصية ذلك الشبح الذي وُجِدَ في الشقة وقتل العسكري، ولماذا قتله؟

– لقد تكونت لدي صورة شبه نهائية لما حدث هناك في منزل شارع زيتون.

سألت متعجبًا:

– لم يقل الطبيب شيئًا مفيدًا في هذا الخصوص على حد ملاحظتي.

– أخبرني أولًا، هل راقبت تعبيراته جيدًا؟

– أجل، لقد كان باردًا جدًا، لم تظهر عليه تعبيرات موحية، فقط الود الشديد وابتسامة عريضة باردة، أعتقد أن تعبيراته مصطنعة بعناية، أو أنها باردة بالفعل لكنها ليست عدوانية أبدًا.

– هذا هو ما أردت معرفته بالضبط.

– ماذا تقصد، الرجل بدا ودودًا لأقصى درجة، هل تعني أنه يخفي

خلف تلك الابتسامة قلقًا ما، أو أنه يتظاهر بالهدوء؟

– على العكس، فالرجل صادق في تعبيراته الباردة.

– لكن ما علاقة الطبيب بالمجرم الآخر الذي نبحث عنه، ما علاقة كل هذا بالجريمة من الأساس، فلن يساعدنا هذا في حل القضية؟

ابتسم يوسف وانقلبت ابتسامته إلى ضحكة مكتومة تشبه صوت الضبع حين يظفر بفريسته، وهي ضحكة لا أبالغ حين أقول إنها مخيفة للغاية، ثم قال يوسف:

– لقد حللت القضية.

– هل تعني أنك حصلت على الإجابة من الطبيب على شكوكك حول ذلك المجرم المجهول؟

– بل أقصد أننا على الأرجح كنا في غرفة واحدة مع واحد من أخطر السفاحين الذين قابلتهم في حياتي وقد غادرنا أحياء للتو وهذا أمر مثير.

– هل هو مرتكب الجريمة؟

– حدسي يخبرني بأنها ليست جريمة واحدة!

لم أصدق في البداية ما سمعته، لكني تذكرت الحديث حول كل تلك الجرائم التي حدثت والتي أخبر فتحي غزلان عنها، لم يعد عقلي قادرًا على الاستيعاب، لم أجد الكلمات المناسبة في البداية للكلام، لقد تعثرت مرتين في النطق حتى وصلنا إلى السيارة، ركبناها ثم أشعلت سيجارة، بدأت في تدخينها وعندها فقط شعرت بالشجاعة

الكافية للنطق وقلت:

– لا تخبرني أن ألقي السيجارة.

لم ينطق يوسف فأكملت:

– هل تعني أن كل تلك الجرائم التي أخبرك عنها فتحي مرتبطة ببعضها، هل كنا بالفعل مع سفاح في غرفة واحدة؟

– هذا هو الاحتمال الغالب.

– وما دليلك على هذا؟!

– هذا أمر سابق لأوانه، يجب أن أتحقق من شكوكي أولًا.

– وما هي خطوتنا التالية؟

– لقد أخبرنا أنه مسافر في الغد ولمدة أسبوع، إذن لنقم بزيارة العيادة مرة أخرى لكن ليس من أجل الكشف، اليوم سنرجع إلى منازلنا وغدًا نتقابل في تمام العاشرة والنصف.

7

عدت إلى منزلي في تلك الليلة وبرودة الليل تطاردني ومعدتي يعتصرها الجوع والقلق يعتريني كقط سقط من الطابق السابع، منذ قرابة شهر كنت أعيش حياة هادئة تمامًا، واليوم قد مررت بمحاولة اختطاف، وتجربة اقتحام منزل قبل أن أهرب منه وهو يحترق، واليوم قابلت سفاحًا لعينًا، وغدًا سأقتحم وكر ذلك السفاح، كم يمكن للحياة أن تصبح مملة للبشر العاديين، وكم هي مخيفة لمن لديهم الجرأة للمغامرة، يقول الجميع إن لديهم الرغبة في المغامرة بالتأكيد، لكن يكذبون، ففي الغالب يقولون هذا وهم جالسون على مقاعدهم المريحة وأمام شاشة التلفاز أو يستمعون لمسلسل إذاعي في الراديو، ثم يتناولون بعدها الحليب ويخلدون إلى النوم مثل الأطفال، لأنهم في قرارة أنفسهم يعرفون جيدًا أن طريق المغامرة وعر، الرحلة فيه غير محسوبة التكلفة والعودة منه غير مؤكدة، دخلت غرفة نومي ودخنت سيجارة وأنا أفكر فيما سيحدث في الغد، في الحقيقة لقد أردت الهرب من تلك المهمة الغريبة، لقد اقتحمنا منزلًا من قبل لكنه كان خاليًا من البشر، هذا طبعًا إذا ما اعتبرنا أن الجثث لا تعتبر بشرًا بالمعنى الحرفي بل أجزاء منهم فقط، لكن غدا الوضع مختلف، سنقتحم عيادة طبيب يحتمل أنه سفاح عتيد، فلو سلمت برأي يوسف فأنا ذاهب إلى عش الدبابير، ولو كان مخطئًا وهو احتمال قائم ولا شك فأنا إذن ارتكب جريمة في حق مواطن شريف، شعرت بالتعب من التفكير لكن حب المغامرة وشوقي إلى تجربة أخرى تحبس الأنفاس جعلاني أتراجع عن أفكار الانسحاب بل والتفكير في طريقة مناسبة لدخول العيادة

بصورة آمنة، لم أحسبني قط قادر على التفكير في مثل هكذا أمر، لكن الحياة دائما تفاجئنا بحقيقتنا التي نخفيها، انتهيت من تدخين السيجارة ثم خلدت إلى النوم مثل لص، وفي اليوم التالي راقبت عقارب الساعة حتى اقترب الموعد، ارتديت ملابسي وذهبت مباشرة إلى بيت يوسف فهمي، هذه المرة ارتديت ساعة يد لحساب الوقت جيدًا وقد جئت مبكرًا عن الموعد الذي اتفقنا عليه بربع ساعة، ضربت جرس الباب أكثر من مرة حتى فتح يوسف ممتعضًا كعادته وقال:

– لقد حرقت قرص البيض بسببك مرة أخرى!

دخلت دون استئذان وتوجهت فورًا إلى كرسي المائدة فقال يوسف متفاجئًا من شجاعتي غير المتوقعة:

– لقد أصبحت لديك خبرة في الاقتحام.

– وأنت لديك شهية لتناول الطعام في اليوم الذي ستقتحم فيه منزل سفاح محتمل!

– أفضل من الاقتحام وأنا جائع.

سألته:

– هل سيحضر سمير؟

أجابني وهو متجه صوب المطبخ في منامته المنزلية:

– بالتأكيد، هو في غرفة مكتبي، يجهز الحقيبة بالكشافات اليدوية والأقنعة.

– أقنعة؟

– فقط إذا ما دعت إليها الحاجة.

خرج سمير من الغرفة حاملًا الحقيبة، وضعها جوار السفرة، رأيت أوراق كثيرة وملفات فوق السفرة فقلت بصوت مرتفع ليسمعني يوسف:

– ما هذه الملفات؟

– هذه ملفات الجثث الأخرى التي قتلت، وقد فقدت أجزاء من كبدها مثل وليد حامد تمامًا، طالعها بنفسك.

نظرت في التحقيقات الصحفية التي تحمل أسماء الضحايا، منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، نرمين فرج، وليد حامد، تم ذبحهم جميعا، مفقود جزء من الكبد وكلهم متورطون في تجارات ملوثة وغير شرعية ولديهم أموال طائلة، قلت لسمير:

– يبدو أن حب المال نهايته الموت يا سمير.

أجابني بسخرية:

– حب الطعام أفضل وأكثر أمانًا.

سألت سمير:

– ماذا تثبت هذه التحقيقات الصحفية؟.. ماذا استنتجتم منها؟

أجابني:

– كل الجثث مقطوع جزء من كبدها، كلهم غير شرفاء ومتورطين

في تجارات مشبوهة، وأموالهم ملوثة. لكن لا يوجد رابطة تجمعهم.

جاء يوسف حاملًا أطباق البيض بالبسطرمة والجبن الأبيض، والبطاطس المقلية وبعض الأرغفة في مشهد بهلواني بديع، وضع الطعام فوق السفرة ثم قال قبل أن نأكل:

– بمعنى آخر إن الجرائم لم تتم لدافع شخصي، بل هو دافع فكري. إذا كان العقل المدبر لكل تلك الجرائم هو رجل واحد بالفعل كما أتوقع فهو رجل عبقري لكنه مجنون يرغب في إثارة مشاعر الناس الأخلاقية، فبقتل هؤلاء المذنبين من وجهة نظره سوف يحقق العدالة الأخلاقية ويجعل الناس تخشى على نفسها من نهايتهم.

قلت مستفسرًا:

– نحن نتحدث عن فيلسوف إذن، روبن هود الذي يسرق الأغنياء ويعطي الفقراء!

قال يوسف وهو يمط شفتيه كمن فقد الأمل:

– ليس تمامًا، هو يجعل منهم عبرة.

سألته مستفسرًا:

– وكيف يختارهم إذن؟

أجاب سمير وهو يلتقط رغيف ليبدأ تناول الطعام:

– أخيرًا بدأت تسأل الأسئلة الذكية، هكذا سوف تحصل على إجابات مفيدة... حتى الآن تبدو اختياراته عشوائية، لكن بالتأكيد هناك رابطًا.

أدرك يوسف أن سمير لن ينتظرنا حتى نأكل فناولني رغيفًا أيضًا، ثم قال:

– لو أن الطبيب هو المجرم الحقيقي، فعلى الأغلب سنجد أن الضحايا كانوا مرضى نفسيين، وهكذا قد وجدهم جميعًا، لأن حتى يرتكب جرائم دافعها أخلاقي كما يفعل فعليه أن يتأكد بنسبة مائة في المائة من خطيئة الضحية، بل عليه أن يستمع بنفسه لاعتراف الضحية

فقال سمير وفمه مليء بالطعام:

– يا لها من مصادفة غريبة، يذهب مجرم إلى طبيب نفسي ليعترف من خطاياه، فإذا به يسلم نفسه لقاتله ومخلصه من عذاب النفس إلى الأبد!

ثم أضاف يوسف ساخرًا:

– أليس هذا هو الغرض الحقيقي للعلاج النفسي؟

تناولنا الطعام بسرعة، ولم يبدُ على يوسف القلق قط، وعندما فرغنا من الطعام ارتدى يوسف بدلته ونزلنا إلى السيارة وتحركنا صوب عيادة الطبيب. عندما وصلنا إلى الشارع كان مظلمًا جدًا فلا يوجد ضوء في الشارع إلا عن طريق لمبة في منتصفه معلقة على عامد إنارة، ولم تكن ليلة قمرية ولم ينهمر المطر كما يحدث في الأفلام فخاب ظني، نظرت في ساعة يدي فوجدتها تشير إلى منتصف الليل، أوقف يوسف السيارة عند ناصية الشارع وبدأ يتحدث:

– هكذا سيتم الأمر، أنا سأصعد الآن بمفردي ومعي حقيبة الأدوات، وبعدها بدقيقة يصعد أحمد خلفي حتى لا نحدث ضوضاء، وأنت يا سمير ستجلس هنا في السيارة وستوجه عينيك صوب الشرفة الخارجية للعيادة، لو طرأ لنا جديد سنشير إليك بالكشافات الكهربائية أو بأيدينا حتى تصعد لتساعدنا، وراقب الشارع جيدًا، لو شعرت بحركة غير طبيعية شغل السيارة فورًا ونبهنا بصوت السيارة، هل هذا واضح؟

أجبت أنا وسمير:

– واضح.

ناولني يوسف كشافًا يدويًا، ثم ارتدى قفازًا في يده وانطلق من السيارة صوب العمارة، والتوتر كاد يجمد أطرافي، وفجأة قال سمير لخفض التوتر:

– لا تخف، على الأقل انتهينا من فرضية الشياطين والجن، فلن تقابل عفريتًا في الأعلى ولن تواجه وحشًا دميمًا.

تعجبت من كلامه فقد زادني توترًا، لكني قلت مجاملًا:

– شكرًا.

نظر سمير في ساعة يده وقال:

– تحرك الآن.

فتحت الباب وتحركت صوب العمارة وأنا أشعر كأن تلك النوافذ المغلقة كلها أعين تراقبني، وصلت إلى مدخل العمارة لأجده مظلمًا،

فتحت الكشاف وصعدت إلى الأعلى حتى وصلت إلى الطابق الرابع، وجدت الباب مفتوحًا فتعجبت من سرعة يوسف في فتحه، وقلت في نفسي "يا له من ماكر"، دخلت العيادة ثم أغلق يوسف الباب وأشعل نور الصالة وقال:

– لا تخف، الصالة ليس فيها نوافذ، ولا يوجد فراغ أسفل باب الشقة، لن يلاحظ أحد النور.

بدأنا في التحرك داخل العيادة، سألت ببلاهة:

– أين سنبحث تحديدًا، وماذا تتوقع أن نجد هنا؟

أشار يوسف إلى الغرفة المغلقة وقال:

– عيادة بها غرفة مغلقة، والممرض يرش المعطر دائمًا، رائحة عطرة مستمرة في مساحة ضيقة، فماذا يكون الهدف من وراءها، بالتأكيد إخفاء رائحة أخرى؟

اقتربت من الغرفة لأحاول فتحها فمنعني يوسف وقال:

– ارتدِ القفاز أولًا مثلما فعلت أنا.

أخرجه من الحقيبة ووضعها على الأرضية، ثم ناولني إياه، ارتديته وحاولت فتح الغرفة لأجدها مغلقة كما توقعت، طالبني يوسف بالتراجع وحاول فتحها بواسطة سلك معدني لكنه فشل في أول مرة، طالبني بالبحث في الحقيبة عن مفك معدني، بحثت فلم أجد شيئًا وفي تلك الأثناء كان قد نجح في فتح الباب لتخرج من الغرفة رائحة قوية، رائحة تشبه رائحة الجاز المحروق، ورائحة أخرى تشبه رائحة الخبز المتعفن، ضغط يوسف مقبس الإضاءة وقد وضحت

الرؤية الآن، هناك قوارير تحمل مواد كيميائية مختلفة الألوان، معظمها يحمل اللون الأخضر، ومنها سوائل خضراء لزجة لكنها مضيئة بدرجة ضعيفة، ابتسم يوسف كمن اكتشف كنزًا وقال وقد بدت عيناه جاحظتين مثل ذئب:

– كما توقعت، هذه هي المواد التي استخدمها في تزييف موقع الجريمة، بل وإحراقه في النهاية، الطبيب هو المجرم الغامض، الشبح الذى يقف وراء هذه الجريمة الشيطانية.

لم أفهم شيئًا فقلت:

– ماذا تقصد؟

– الطبيب هو الشخص المتنكر في زي الضابط، هو اليد الخفية في تلك الجريمة!

– كيف هذا؟

– عندما تفحصت محتويات الشقة قبل احتراقها وجدت هناك قرطًا ذهبيًا وسوارًا وخاتمًا نسويًا ومعهم ورقة مطوية في مظروف، الورقة جواب من عاشق مجهول يبلغ فيه الزوجة بأنها يجب أن تهرب معه وموقع باسم وليد، وهكذا ظن عباس أن وليد يخونه مع زوجته فدبر لهما هذه الجريمة البشعة ليقتلهم، لكنه كان غبيًا، فلو دقق في مقاس السوار والخاتم لاكتشف أن المقاس أصغر من مقاس يد زوجته وأصابعها، كان ليفهم أن تلك الأدلة زائفة، حتى الجواب مكتوب بنفس الخط الذي كتبت به العبارة بالدماء على الحائط، ولم يكن خط عباس الذي قرأته في مذكرته، أغلب الظن أن عباس

بعدما ارتكب هذه الجريمة لم يعرف ما عليه فعله، فخرج من المنزل خائفًا، ورجع إليه ليجده على هذه الحالة، فقد لاحظت أن طريقة ذبح الزوجة والعشيق المزيف تختلف عن تقطيع الجثث، فالذبح جاء عشوائيًا، اليد التي ارتكبته يد غير معتادة على القتل، لكن لا توجد آثار مقاومة عند الذبح بما يوحي أنه قد خدرهما في البداية، أما طريقة تقطيع الأجزاء فهي احترافية، يد ماهرة في التشريح هي التي قطعت الأجزاء، ولا يستطيع أي شخص اقتطاع جزء من الكبد إلا ولديه معرفة بمكونات الجسم الداخلية وهو ما يتفق مع مهنة الطبيب، وبعدها نشر تلك المواد الكيميائية في المنزل والتي جذبت الحشرات ونشرت الرائحة العفنة الحامضية، ثم رسم تلك الرسوم البشعة على الحيطان، وعندما جاء عباس إلى المنزل شعر بأن الله يعاقبه على جريمته البشعة وهذا يتفق مع ما أخبر الطبيب به سابقًا، فحدثت له تلك الصدمة التي أصابته بالجنون.

– ولماذا ذبح الطبيب العسكري؟ وما دامت لديه كل تلك الأدلة الدامغة على ارتكاب عباس للجريمة لماذا حرق المنزل؟

– لم يكن الهدف من تلك الأدلة هو إثبات ارتكاب عباس للجريمة، بل كانت لحثه على ارتكاب الجريمة من البداية، وذبح الضابط جاء بسببنا نحن على الأرجح، فقد شك المجرم في وجود أشخاص آخرين في المنزل، فظن أنها خطة للإيقاع به أو على الأقل شك في وجود أحد يراقبه، ولهذا ذبح العسكري ليلصق التهمة بمن يراقبه، أو ربما قد كشفه العسكري فكلها احتمالات واردة، ثم أحرق المنزل عن طريق إشعال شمعة صغيرة في المطبخ ووضعها جوار المواد القابلة للاشتعال ثم هرب بسرعة، وتلك المواد الكيميائية سريعة الاشتعال

ساعدت في زيادة الحريق والانفجار بمساعدة من أسطوانة البوتاجاز في المطبخ.

لم أصدق ما سمعت، ولا أعني أن يوسف يختلق قصة وهمية وخط سير غير حقيقي لهذه القضية، بل ما أقصد هو كيف لرجل مثل بقية البشر أن يتمكن من نسج خيوط جريمة بالغة التعقيد كهذه الجريمة، حتما هو مجرم لكن لا يجب أن نبخسه حقه ونقول إنه مجرم عادي، فهو مجرم عبقري، فما بالنا إذن بالرجل الذي فك طلاسم هذه الجريمة العبقرية، نظرت إلى يوسف كما لم أنظر له من قبل، فهذا العقل المستقر داخل جمجمته العظمية هو أقرب إلى عنكبوت لا تشغله الخيوط الكثيفة عن الوصول إلى هدفه المحدد وقد أمسك بصيد ثمين للتو، لكن لا يجب أن نتسرع في الحكم، فربما يفلت المجرم رغم معرفتنا الأكيدة بكيفية تنفيذه لجريمته، فالفيصل هنا هو الأدلة الدامغة، لهذا سألت:

– هل هذه المواد الكيميائية دليل كافٍ للزج به في السجن؟

أجابني يوسف دون تفكير:

– لا، لهذا يجب أن نستمر في البحث عن أدلة أخرى.

تحركنا في الغرفة لنستأنف رحلة البحث عن الدليل الذي يزج بهذا الشبح إلى السجن إلى الأبد، تجاوزنا الخزانات الحديدية التي تتراس بداخلها القوارير التي تحمل المواد الكيميائية، وبعدها وجدنا قرب نهاية الغرفة مكتبًا متوسط الحجم، وكرسيًا واحدًا فقط، تحرك يوسف نحو المكتب المتسخ بالأتربة وكان المكان ضيقًا بحق فلم أتمكن من التحرك من خلفه والوقوف جواره عند المكتب فكل

الخزائن والقوارير هنا منتشرة في كل مكان حيث لا يمكن أن تضع قدمك على الأرضية قبل أن تفكر ألف مرة أين تضعها وإلا حطمت شيئًا، وبينما أنا عاجز عن الدخول إلى يوسف وجدته ممسكًا بحفنة من الأوراق، سألته:

– هل هذه سجلات المرضى؟

أجابني دون أن يحيد بناظره عن الأوراق:

– أجل.

كانت كومة ضخمة من الأوراق، أخذ يقلب فيها وأنا أحاول الوصول إليه عبثًا، قلت يائسًا:

– هل تريد المساعدة؟

لكنه لم يفهم المزحة، بل لم يجب حتى، في تلك الأثناء بدت رائحة الغرفة عفنة لدرجة تقلب المعدة، تمالكت نفسي عن القيء بصعوبة، وخرجت إلى الصالة لاستنشاق بعض الهواء، أردت تدخين سيجارة، أخرجت واحدة وقبل أن أشعلها تذكرت أنه لا يمكن أن أترك أثرًا فتراجعت عن الأمر، مضت بضع دقائق على يوسف في الداخل وأنا مستغرق في الانتظار، شعرت بالقلق والتوتر لأنه تركني كل تلك المدة بمفردي ودون مهمة أنفذها، في حين قيامه بقراءة بعض السجلات، وبينما أنا بمفردي في الصالة راودتني فكرة تتلخص في تفتيش غرفة الطبيب بمفردي بحثًا عن خيط في القضية أو دليل دامغ، لكن قبل تنفيذ فكرتي خرج يوسف فجأة من الغرفة حاملًا بضع أوراق في يده، فسألته:

– ماذا تفعل بتلك الأوراق؟

قال مبتسمًا:

– هذا هو الدليل الأول.

ثم استعرض الأوراق وهو يقول:

– إنها ملفات الحالات، منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، إنها ليست ملفات المرضى، بل هى ثلاثة ملفات لثلاث ضحايا:

صعقت من الفكرة لكن فرحت في الوقت نفسه، صعقت من فكرة تجميع تلك الملفات في مكان واحد، لكن على الأرجح فالسفاحين يفضلون أن يقوموا بقراءة ملفات الضحايا في الصباح الباكر في أثناء تناول القهوة فهذا يشجعهم على استكمال يومهم على الأغلب، قلت ليوسف:

– انتهينا إذن؟

– لا، هذا لا يعتبر دليلًا قاطعًا، يجب أن نستمر في البحث فقد دخلنا وكر الوحش، حتمًا سنجد هنا المزيد من الأدلة.

لم أقتنع بكلام يوسف لكنه رئيسي في كل الأحوال، فتح يوسف الحقيبة التي وضعناها على الأرضية وقام بدس ملفات الحالات فيها، ثم أشار ناحية الغرفة، توجهنا صوبها وفتحناها بسهولة فلم تكن مغلقة بمفتاح، دخلنا لكن لم نضغط مقبس الإضاءة فهناك شرفة بابها زجاجي، لهذا لجأنا إلى أضواء الكشافات اليدوية، بحثت في الخزانة الخشبية بينما بحث يوسف في المكتب، لم أجد شيئًا في الخزانة إلا المزيد من الأوراق الطبية والكتب التي لطالما كرهتها،

كتب في الطب والكيمياء والتاريخ، يبدو أنه يمارس القراءة في أوقات فراغه كسفاح، وهناك ملفات المزيد من المرضى والكثير من الأبحاث العلمية، مللت من الخزانة فنظرت ناحية يوسف، وجهت الكشاف ناحية اللوحة خلف المكتب الذي جلس يوسف فوق كرسيه، اللوحة بديعة حقًا، في تلك الأثناء قال يوسف:

– وجدت شيئًا.

أخرج يده من درج المكتب حاملًا تذكرة سفر، ومعها مفكرة تشبه دفتر الملاحظات الخاص بيوسف، المذكرة في نفس حجم قبضة اليد، فتحها يوسف ووجه ضوء الكشاف لها وقال:

– هذه تذكرة سفر إلى دولة المغرب، هل يفكر في الهرب؟!

ثم حرك يده وأمسك بدفتر الملاحظات بعناية وقال:

– ويبدو أنني قد وجدت ضالتي أخيرًا.

سألته:

– ماذا تقصد؟

وضع تذكرة السفر على المكتب، ثم أجاب وهو يقلب الصفحات بسعادة غامرة:

– إنها مذكرة طارق بل يمكنك القول إنها مذكرة الشيطان، كل الخطط مدونة هنا فيما يبدو، وأسماء الضحايا الخمسة لكن بترتيب مختلف، فقد وضع اسم نرمين بعد اسم وليد، هذا على الرغم من قتله لوليد أولًا كما عرفت من التقرير الصحفي الذي أرسله إلينا

فتحي غزلان، لكن هذا غير مهم الآن.

– ماذا يوجد أيضًا؟

– الكثير من التفاصيل، أسماء المواد الكيميائية المستخدمة، مواعيد تنفيذ المهام الخاصة بالمراقبة وملاحظات خاصة بالقتلى حول مواعيد نزلوهم من المنزل، عاداتهم، أوقات رجوعهم إلى المنزل، أماكنهم المفضلة، يوجد أيضًا مبررات دفعته إلى ارتكاب تلك الجرائم، كل صفحة تحمل اسم أحد الموتى وفوقه توجد علامة غير مفهومة، إضافة لهذا النص المبهم الذي كتب في الجزء العلوي في كل صفحة من صفحات الضحايا "أيها الثعبان القديم الذي أغرى حواء، يا مقتلع الزرع الجيد، يا فينوس، يا أمير الذباب الذي يحوم فوق الثعابين التي تسبح في مياه الحوض الملعون، بينما تبتلع أنت الذهب والفضة، سأحضر إليك بنفسي، هناك داخل نجمة السماء التي تهوى إلى الأرض في منتصف الليل حين يصبح القمر بدرًا"، وهناك رسومات طفولية لا معنى لها، دوائر حول نجمة ورسومات لثعابين حولها.

لم أفهم كلمة واحدة مما قال، سألته:

– لم أفهم حرفًا.

– ولا أنا، يبد أن الكلام مشفر، هناك أيضًا المزيد من تلك العبارات الغريبة داخل علامات تنصيص ومنتشرة في أكثر من صفحة، بالتأكيد هناك المزيد من المعلومات التي يمكننا معرفتها من قراءة هذا الدفتر.

– إنه مجنون!

– لا أعتقد، لا يمكن ارتكاب كل هذه الجرائم عبثًا، حتمًا هناك سر وسأجده حتمًا.

– يبدو أنك وجدت ضالتك بالفعل.

أجاب يوسف بنفاد صبر:

– لكن هناك سؤال أخير، ما دفعه إلى كل تلك الجرائم؟

وفجأة بينما نحن مستغرقين في القراءة، ضغط أحدهم مقبس الإضاءة وقال:

– القراءة في الظلام تؤذي العين!

التفتنا إلى منبت الصوت لنجد طارق يقف عند الباب، ممسكًا مسدسًا ومصوبه ناحيتنا، ولا تزال على محياه الابتسامة الباردة نفسها، أصابني الرعب في تلك الأثناء لكن تظاهرت بالقوة التي لن تفيد على كل حال، فبعد لحظات ربما أنتقل إلى العالم الآخر دون مقدمات، قال يوسف:

– هذا صحيح.

ابتسم طارق مجددًا وبدا كما لو أن القلق لا يعرف إلى قلبه سبيلًا، وقال:

– يبدو أنها نهايتكم.

قال يوسف رافعًا يديه إلى الأعلى:

– الهروب من القدر محال.

رفعت يدي أيضًا، ونطقت الشهادة بصوت خافت، رمقني الطبيب بنظرة حادة، ثم أشار بالمسدس ناحيتي وقال:

– اجلب لي التذكرة والمذكرة من يد زميلك.

لا أعرف لماذا دائما أتورط في مثل هذه الكوارث، توجهت صوب يوسف فناولني المذكرة والتذكرة، أردت رميهم إليه لكنه قال:

– سلمهم بنفسك.

اقتربت منه متحفظًا في خطواتي فكنت كمن يتجه نحو الطاعون بنفسه، كانت لديه تلك النظرة التي حكيت عنها قبلًا كأنه ينظر إلى قلبك وداخل عقلك مباشرة، نظراته تخترق الجلد نفسه، لو كان شخصًا آخر مثلي يقترب من مجرم يهدده كما أفعل الآن لفكر في لكمه وإسقاطه أرضًا وبصورة سينمائية للغاية، لكن الطبيب مرعب بحق، أنا حتى أخشى من نظراته فهو لا يبدو هينًا أبدًا، ولن يتردد لحظة واحدة في قتلي، لهذا تنازلت عن دور البطولة وسلمته التذكرة والمذكرة ويحذوني الأمل أن يتركني حيًا لدقائق أخرى بعد، أمسك بالمذكرة والتذكرة، تفحصهما دون أن يحيد بناظره عنا ثم قال ليوسف:

– يبدو أننا وصلنا إلى نهاية الطريق، أنت رجل ذكي يا يوسف لكن لا تؤاخذني على ما سأفعله، يجب أن أقتلك فكل خطيئة لها عقاب!

قال يوسف بذكائه المعتاد:

– كيف عرفت بوجودنا؟

أجاب باستعلاء:

– لن أقول.

لكن يوسف استمر وسأل متظاهرًا بالغباء:

– هل ستطلق النار علينا مخاطرًا بفضح نفسك؟!

ضحك الطبيب وأجاب ساخرًا:

– لديك أمل وهذا ما يعجبني فيك، فأنت لا تستسلم أبدًا، ولهذا لن أخيب ظنك.

لم أفهم ما يقصده طارق لكنه بدا يدبر لنا أمرًا أشد وطأة من الموت نفسه، أخذ يشم رائحة الهواء ثم قال:

– الوقت قد حان.

شممت الهواء وقد بدا لي أن هناك رائحة حريق، في تلك اللحظة خرج طارق من الغرفة وأغلق الباب من الخارج فانطلقنا ناحية الباب محاولين فتحه عبثًا، سمعت صوت المفتاح يغلق الباب وسمعناه يقول:

– وداعًا يا رفاق، سأراكم في الجانب الآخر لكن بعد عمر طويل، اختبروا الجحيم الآن!

سمعت وقع أقدامه يركض خارجًا من العيادة، بينما نحن عالقون هنا، قلت منفعلًا:

– لقد أشعل النيران في المواد الكيميائية.

قال يوسف ساخرًا كعادته:

– هذا واضح.

سئمت من السخرية في تلك اللحظة، وعندما سمعت صوت النيران تلتهم كل ما يقابلها في الخارج شعرت أنها نهايتي أخيرًا، بالتأكيد نهاية خدمة رجل مثل يوسف فهمي ستكون نار حارقة، بدأ الهواء في الغرفة يسخن، لم أعرف ما الحل فحتى لو تمكنا من فتح الباب فسنجد أمامنا الجحيم، حاول يوسف فتح الباب عبثًا ثم قال:

– قم بفتح الشرفة ونبه سمير.

ذهبت بالفعل ناحية الشرفة، فتحت بابها وراودتني فكرة مجنونة بالقفز لكن تجاهلتها بصعوبة، أين هذا الخنزير سمير بحق الله، كيف له أن يدع ذلك الطبيب يصعد هكذا ويباغتنا دون أن ينبهنا، لم ينتبه سمير حتى الآن رغم إشاراتي إليه وفتحي لباب الشرفة، ما الذي يمنعه من الانتباه ذلك السمين الأبله، نظرت لأجد الطبيب يركض مبتعدًا في الجهة المقابلة لسيارتنا، فالشارع مفتوح من الجانبين، أصابني اليأس بعد محاولات مضنية مني للفت انتباه سمير الذي حسبته في السيارة، لكن فجأة فوجئت بسمير يتحرك من آخر الشارع ويصل إلى السيارة وقد شاهدني، التفت حوله وتحرك بسرعة لا تتناسب مع حجمه ناحية السيارة، وفي تلك الأثناء قال يوسف:

– لقد فتحت الباب.

لم يكن يقلقني فتح الباب، بل كل ما يشغلني هو كيف سنعبر باب

العيادة المغلق عن طريق عبور الصالة المشتعلة، فتح يوسف الباب لنجد النار تزدهر بشدة، نحن واقفان أمام الباب بينما أمامنا اللهب يزدهر ولونه أحمر كأنه نذير نهاية العالم، شعرت بالرهبة وارتجفت بالفعل، لكن يوسف هدأني وقال:

– لن يحدث لنا شيء.

قلت مرتعشًا، بينما بالكاد أتنفس:

– ما هي الخطوة التالية؟

أجابني ساخرًا:

– هذه ليست مرتك الأولى في الهروب من حريق، يجب أن تتحلى ببعض الثقة.

أخذ يوسف يفكر ثم تحرك ناحية السجادة التي تغطي الأرضية، قال:

– ساعدني.

وقفت وأنا لا أعرف ما يجب أن أفعل، وجدته يلف السجادة ويكورها ففعلت مثله، ثم عندما انتهينا قال:

– قف ملتصقًا بي.

فعلت مثلما أمر فقام بلف السجادة علينا فأصبحنا مثل شطيرة النقانق التي ستدلف الفرن فورًا، لكن يوسف لم يحرك ساكنًا حتى سمعنا صوت الباب الخارجي يتحطم عن طريق سمير وبمساعدة مطرقة معدنية صغيرة يحملها في يده في تلك اللحظة قال سمير:

– هل أنتما بخير؟

فهم يوسف أن الباب مفتوح وأن فرصتنا حانت للتحرك فقال ساخرًا:

– إلى الجانب الآخر:

كانت السجادة تغطي أعيننا حتى فلم نبصر شيئًا، لكن يوسف اعتمد على ذاكرته في حفظ المكان فقط، مما جعل الأمر أكثر سخرية وعبئًا مما تخيلت، تحركنا بسرعة عبر الصالة وقد شعرت بلهيب النيران ينهش السجادة من الخارج بينما نحن داخلها في أمان مؤقتًا، كان يوسف يغطي بها أجسامنا كلها فلا يدع شيئًا يظهر من ملابسنا ولا وجهنا، لم أكن أعرف بالضبط الوجهة التي نتجه إليها وكنت أنتظر أن نرتطم بالحائط في أية لحظة لنسقط في النيران التي تقوم ببلعنا في لحظات، لكني فوجئت عندما قال سمير:

– لقد خرجتم تخلصوا من السجادة بسرعة.

لم أصدق نفسي أننا خرجنا من هذا الفرن، لكن في اللحظة نفسها لم أعرف كيف سنتخلص من تلك السجادة التي أصبحت كتلة من النيران تلتف حولنا، وفجأة وجدت يوسف يتحرك بسرعة ناحية اليمين فتذكرت أن هناك حائط مدخل العيادة، وقال:

– ساعدنا الآن في التخلص من السجادة ولفنا يا سمير.

قام سمير بلفنا بأقدامه وبالفعل نجوت من الموت مع يوسف لكن أصبت بصداع شديد، قال يوسف متحمسًا:

– لنلحق بالقاتل.

لم أحتمل ما جرى، فأنا لا أصدق إلى الآن أنني حي، في تلك اللحظة شعرت بالدوار فسقطت أرضًا، وقفت بمساعدة سمير الذي أخذني ونزلنا خلف يوسف وهو يخاطبني قائلًا بسخرية:

– لقد نجوت من الموت مرة أخرى.

نظرت خلفي لأبصر السجادة التي قد احترقت كلها من الخارج، بل وما زالت النيران تشتعل في أجزاء منها، فقلت في نفسي "لقد كنت داخل السجادة كالمولود في بطن أمه، لا أبصر شيئا، فاليوم ولدت مرة جديدة"، نزلنا متأخرين بسبب شعوري بالدوار، تحركنا ناحية السيارة وقد بدأ الناس في ملاحظة الحريق، لكن على الأرجح فبعضهم لم ينتبه بعد وقد لا ينجو معظمهم، قبل أن نصل إلى السيارة كنت قد استفرغت ما في معدتي مرة أخرى فقال يوسف:

– من حسن حظك أنك فعلتها قبل أن نركب السيارة وإلا لأعدتك إلى الحريق مرة أخرى!

ركبنا السيارة، جلست في الخلف ويوسف وسمير في الأمام، أراد يوسف أن ينطلق فورًا مدفوعا بالحماسة الشديدة بالبحث عن المجرم ومحاولة اللحاق بسيارته التي قد اختفت بالفعل تمامًا ولا أحسبنا سنعثر عليها هذه الليلة أبدًا، لكن سمير منعه عن قيادة السيارة وقال غاضبًا وهو يشير إلى العمارة التي على شفا كارثة:

– هناك أمر أكثر أهمية من مطاردة مجرم يا أستاذ يوسف.

نظر يوسف إلى سمير بخجل ولأول مرة في حياتي أراه يشعر بالذنب، نزل يوسف من السيارة وقال لسمير:

– قف بالسيارة عند ناصية الشارع التالي واعتنِ بأحمد جيدًا، سأوقظ أهل العمارة وأساعدهم في النجاة من الحريق ثم ألحق بكم.

لم أعرف تحديدًا ما حدث تاليًا، فقد كنت أشعر بحرارة شديدة تجتاح جسدي، انطلق سمير بالسيارة، قلت له:

– شكرًا لك، لكن أين كنت؟

– لقد حاول أحدهم سرقة السيارة فكنت أطارده.

– شكرًا أيضًا لأنك فكرت في أهل العمارة.

قال سمير وهو يشير إلى صدره:

– توجد معدة أسفل هذه الدهون، لكن هناك أيضًا قلبًا.

وصلنا إلى ناصية الشارع التالي ولم ننتظر لأكثر من ربع ساعة حتى وصل يوسف، بدأت أشعر ببعض الراحة في معدتي وهدأت حرارتي قليلًا، جلس يوسف على كرسي القيادة وعن جواره سمير وأنا في مكاني على الكنبة الخلفية، انطلقنا في طريقنا وقلت ليوسف أوصلني إلى المنزل من فضلك، فأجاب:

– لا.

– لماذا؟

– سنذهب جميعًا إلى منزلي وسيعتني سمير بك حتى الصباح فهو لديه بعض الخبرة في الاعتناء بالمرضى، فليس لدينا المزيد من الوقت، يجب أن نتصرف بسرعة ونتخذ قرارنا بشأن هذا المجرم، فهو سيسافر الليلة إلى المغرب، طائرته ستقلع في الثانية بعد

منتصف الليل كما كتب على التذكرة، وحتمًا لن نتمكن من الوصول إليه الآن ولن يسعفنا الوقت في إيجاد دليل آخر للقبض عليه.

قال سمير:

– هل سيفلت بفعلته؟

قال يوسف:

– على الأرجح، لكن هناك حلًا واحدًا وهو أن نعرف وجهته في المغرب، لكن هذا مستحيل فليس لدينا عنوانه وحتى لو وصلنا إلى عنوانه فعلى الأكثر ستخبرنا زوجته عن المدينة التي يقصدها في المغرب فقط ولن نعرف أبدًا له مقرًا هناك، يبدو أننا سنتركه يهرب في النهاية وننتظره حالما يرجع من المغرب، هذا لو رجع من الأساس!

أصيب ثلاثتنا باليأس من تلك القضية، فحتى بعدما وجدنا القاتل فلا سبيل يمكننا من معرفة وجهته في المغرب، في تلك اللحظة تذكرت وجود رقم هاتف العيادة في جيبي فقد دونته فوق تذكرة حديقة الأسماك، بحثت في جيبي فوجدت التذكرة في مكانها، شعرت أنه لا فائدة منها فأردت رميها من النافذة، قلت ليوسف وأنا أشير إليه بالتذكرة التي تحمل الرقم والاسم.

– يبدو أننا لن نحتاج إلى رقم هاتف العيادة في شيء، فقد احترق مسبقًا!

وبينما أشير بالتذكرة وأتجه بيدي ناحية نافذة السيارة الخلفية لألقيها، أوقف يوسف السيارة فجأة وكاد يصدم السيارة بالرصيف

وهو يصيح بي:

– توقف!

8

لم أفهم شيئًا لكن وجه يوسف استحال شاحبًا فجأة، يوسف الذي لم يخف من الحريق، ولم يرتعش ولو مرة واحدة عند مواجهة سفاح خطير، قد أصيب بالفزع عندما شاهدني ألقي تلك التذكرة من نافذة السيارة، خرج يوسف من السيارة وفتح الباب الخلفي وجلس بجواري، أمسك بيدي التي تحمل التذكرة وقد توقف لسانه عن العمل تمامًا وأخذ يتنفس كالعدائين، أمسك التذكرة من يدي وأخذ يقلبها على الوجهين، وجه يحمل رسم تذكرة حديقة الأسماك وآخر يحمل اسم طارق نور ورقم هاتفه، قال يوسف:

– يجب أن نعثر على هذا السفاح في المغرب بأية طريقة، سوف نطلب زوجته في الهاتف لنعرف وجهته في المغرب، أو لنعرف عنوانه في القاهرة ونقوم بزيارتها في الصباح ونتحدث معها أو حتى نقتحم المنزل في أثناء غيابها ونفتش في المنزل.

تحركنا مرة أخرى وما جرى تاليًا كان جنونيًا للغاية، لم أشاهد أحدًا يقود السيارة بهذه السرعة من قبل، في غضون دقائق قليلة جدًا كنا عند منزل يوسف، تركنا يوسف في السيارة وصعد بسرعة البرق إلى الشقة، لم يطل هناك فسرعان ما نزل خائب الرجاء وقال:

– لم يجبني أحد، يبدو أنها نائمة، أو سافرت بالفعل.

قلت:

– سأذهب إلى منزلي إذن.

نظر يوسف في ساعته وقال:

– تأخر الوقت، إنها الواحدة والنصف صباحًا، لن يذهب أحدكم إلى أي مكان، اصعدوا إلى شقتي حتى الصباح كما قلت وسيعتني بك سمير، فغدًا سنباشر العمل.

تبادلت مع سمير نظرات الدهشة، فلم أفهم سر التحول المفاجئ الذي طرأ على يوسف عندما قرأ اسم طارق على التذكرة، خضعنا لرغبته فورًا وصعدنا إلى هناك وقد ألقيت نفسي فوق أول أريكة رأيتها وكانت في غرفة لم أدخلها قط لدرجة جعلتني أظن أنها لم تكن في المنزل من الأساس وقد نمت فورًا من فرط التعب، في اليوم التالي صحوت لأجد يوسف جالسًا في مكتبه جوار الهاتف، ينظر في الساعة كمن ينتظر وقتًا ملائمًا للاتصال، عندما جاءت الساعة السابعة صباحًا طلب يوسف رقم هاتف منزل الطبيب فأجابه أحدهم أخيرًا، فرح يوسف كطفل وفتح مذكرته ليدون كل حرف كالطلاب، ثم قال بسرعة:

– منزل الطبيب طارق، أنا مريض عنده وهناك حالة طارئة يجب أن يستشيره الطبيب بشأنها، فهى مسألة حياة أو موت.

أجابه الطرف الآخر مطولًا، ثم قال يوسف:

– سافر إلى أين؟

أخذ يدون في مذكرته كالمحموم وقال:

– هل يمكن أن تعطيني رقم هاتف الفندق في المغرب، أو على الأقل اسم الفندق الذي ينزل فيه هناك؟

أنصت يوسف بعناية ثم قال متعجبًا:

– ذهب إلى الرباط لكن لم يخبرك أين تحديدًا، هل يمكنك مساعدتي من فضلك فالأمر جد خطير.

حصل على إجابة سلبية، فقد بدا محبطًا جدًا، أغلق الهاتف بعد أن شكر الطرف الآخر، وضع المذكرة على مكتبه مفتوحة على صفحة ما، أمسك بقلم رصاص لكنه لم يكتب حرفا، لم يبد عليه أنه لاحظ وجودي عند باب الغرفة حتى، فدخلت إليه وقلت:

– هل حصلت على معلومة جديدة؟

أجاب محبطًا:

– ليس تمامًا، هو مسافر إلى الرباط، هذا فقط ما عرفته.

قلت:

– إذن ماذا تقرأ في المذكرة الخاصة بك.

أجابني:

– "أيها الثعبان القديم الذي أغرى حواء، يا مقتلع الزرع الجيد، يا فينوس، يا أمير الذباب الذي يحوم فوق الثعابين التي تسبح في مياه الحوض الملعون، بينما تبتلع أنت الذهب والفضة، سأحضر إليك هناك داخل نجمة السماء التي تهوي إلى الأرض في منتصف الليل عندما يصبح القمر بدرًا".

– لقد حفظتها من مرة واحدة؟

– أجل، لكن لا أفهم ما علاقة هذا كله بما حدث، يوجد رابط لا أستطيع الوصول إليه، هذه الرسالة المشفرة يجب حلها أولًا قبل أن

نصل إلى مرادنا.

– أين وصلت فيها إلى الآن.

– القمر بدر، القمر سيصبح بدرًا في خلال يومين لهذا فلست أملك المزيد من الوقت لحلها، يجب حلها اليوم قبل السفر.

– إلى أين؟

– المغرب، لقد حجزت التذكرة بالفعل، سأسافر فى الساعة السابعة من مساء اليوم بمفردي.

شعرت بالغضب فقد بدا كتومًا مرة أخرى، لن أحتمل الجلوس هنا بينما يحل هو أخطر قضية سمعت عنها في حياتي، قلت:

– لن تذهب بمفردك، هذا الطريق بدأناه معًا، ويجب أن ننتهي منه معًا، لقد حاول الرجل قتلي كما حاول قتلك، أنا أيضًا أريده أن يحصل على ما يستحقه.

– وما هو الذي يستحقه؟ هل تعرف ما الذي قد يحدث لنا هناك في المغرب؟

أجبت غاضبًا:

– يستحق السجن إلى الأبد، الإعدام، وسوف أكافح من أجل ذلك بكل قوتي.

ضحك يوسف ساخرًا وقال:

– القضية خطيرة.

– لقد مررنا بالكثير معًا، أنا وأنت وسمير.

بدا يوسف جادًا لأول مرة منذ قابلته، فقد جحظت عينيه فجأة ووقف أمامي مباشرة وقال بجدية:

– الأمر ليس مغامرة عادية هذه المرة، هذا الرجل لن يدعنا ندفعه نحو حبل المشنقة ببساطة، الأمور قد تسير بصورة لن تعجبك، هذه المرة الأمر لا يتعلق بتحقيق العدالة، بل بتنفيذها بالقوة إذا ما استدعت الضرورة، هذا الرجل خطير.

لم أتصور أن تصل حدة يوسف وصراحته في الحديث إلى هذه الدرجة، يوسف يبدو جادًا بشأن هذه القضية، فلو كان يهتم بشأن حل القضية فقط لانتهى به الأمر عند هذا الحد، لكنه يريد أن يقفل القضية تمامًا، يريد أن يريح الجميع من هذا السفاح، وهذه أيضًا رغبتي.

– أنت قلتها بنفسك، هذا الرجل خطير، فكيف ستسافر إليه بمفردك، أعطني مبررًا لعدم سفرنا معك.

– لن يسافر سمير، فلديه عمل في القاهرة، أما أنت فربما حتى لا تحمل جواز سفر فأنت طفل.

قلت وقد شعرت بالإهانة:

– أنا متفرغ وعندي جواز سفر، لن تذهب من دوني وإلا أصبح هذا آخر لقاء بيننا، والآن ارفع سماعة الهاتف واحجز تذكرتين بدلًا من واحدة.

فكر يوسف لدقيقة جعلتني أظنه سيتخلى عني، لكنه رفع سماعة

الهاتف وطلب المطار وقام بحجز تذكرتين بدلًا من واحدة، ثم وضع السماعة مرة أخرى وقال يائسًا:

– على كل حال قد يصبح كل هذا من دون قيمة إذا ما عجزنا عن حل العبارة المشفرة، وتصبح مجرد رحلة لطيفة في المغرب فلا حاجة إلى العصبية بيننا.

تنفست الصعداء بعدما حصلت على ما أريده، لم أرد ليوسف أن يواجه ذلك المجرم بمفرده، أريد أن أرى نهاية هذه المغامرة بعيني، لم أعرف تحديدًا سر تمسكي بالسفر معه لكنها بالتأكيد رغبة داخلية مني في إثبات نفسي كمحقق بارع وذكي مثله فأنا منذ هذه اللحظة لم أعد أرغب في أن أصبح مجرد محامٍ عادي، جلست على الكرسي المقابل ليوسف وسألته:

– هل هناك أي دليل جديد في القضية قد اكتشفته من مراجعة التحقيقات الصحفية؟

أشار يوسف برأسه نافيًا ثم قال:

– يبدو أنني أسال نفسي الأسئلة الخاطئة، لهذا لا أصل إلى الغرض الحقيقي من الجريمة، لو وصلت إلى دافع الطبيب لارتكاب الجرائم فعندها سأعرف إلى أين هو ذاهب.

– تقصد إلى أين هو هارب، ألم يجد سوى المغرب حتى يهرب إليها؟!

هز يوسف رأسه نافيًا مرة أخرى وقال:

– لا أعتقد أنه يهرب، فتذكرة سفره محجوزة قبل أن يكتشف أننا

كشفناه، السؤال الصحيح ليس لماذا يهرب إلى المغرب؟ بل لماذا يذهب إلى المغرب؟

– هل تقصد أن السفر إلى المغرب جزء من خطته؟ هل تعني أن جرائمه لم تنتهِ بعد؟

– لا أعرف تحديدًا، لكن هذا هو الاحتمال الأقرب إلى الحقيقة، ما هو دافعه يا ترى؟

أمضينا بقية النهار في محاولة بائسة لفك تلك الرسالة المشفرة ولمحاولة معرفة الدافع لارتكاب كل هذه الجرائم، بالتأكيد فشلنا أكثر من ألف مرة، وبعد صحو سمير فشلنا بضع مرات أخرى، لم أحسب أن الأمر بهذه الصعوبة لكنه كذلك مع الأسف، فليس لدينا إجابات جديدة لما نحمله من تساؤلات، يبدو أنها لن تصبح مغامرة، بل فقط سنقضي يومين عطلة هناك ونعود إلى القاهرة مجددًا كما قال يوسف وهذا ليس سيئًا على كل حال. وعندما جاءت الساعة السابعة مساءً اجتمع ثلاثتنا في غرفة مكتب يوسف الذي جمع يوسف فوقه كل الأوراق الخاصة بالقضية في ملف واحد ثم عندما انتهى خاطبني قائلًا:

– الطائرة سوف تغادر غدًا صباحًا، سوف نصل إلى المغرب في فترة الظهيرة على الأغلب ولن نمتلك سوى يوم واحد فقط للتفكير، فبعد يومين سوف يصبح القمر بدرًا وربما إذا لم نغتنم هذه الفرصة فقد يضيع منا إلى الأبد.

ثم وجه الحديث إلى سمير الذي بدا غير منتبه كعادته وقال:

– وأنت يا سمير سوف ترافقنا غدًا إلى المطار حتى تعود بالسيارة إلى هنا، وسوف أترك لك مفتاح المنزل حتى ترعى سلطان.

نظر سمير إلى سلطان الذي صاح وكأنه فهم ما قيل، ثم أشار سمير إلى يوسف بالموافقة وهو يقول:

– لكن عليك أن تخبره ألا يعضني مرة أخرى.

أشار ناحية سلطان بيديه ثم رفعهما إلى أعلى كتعبير عن قلة الحيلة وقال:

– أخبِره بنفسك.

امتعض سمير قليلًا ولم أفهم لذلك سببًا، ونظر في ساعة يده ثم قال:

– الساعة الآن السابعة والنصف، سوف أذهب الآن لقاء أمر مهم، يبدو أننا قد اتفقنا على كل شيء، متى سنتحرك من هنا للمطار؟

أجاب يوسف:

– الثامنة صباحًا، الطائرة سوف تنطلق في تمام العاشرة والنصف.

بعد أن اتفقنا على كل شيء طلبت من يوسف أن أذهب إلى منزلي لأجهز حقيبة سفري فوافق وطلب من سمير ألا يرهق نفسه حتى الغد في سهراته فاستجاب دون نقاش وهو يضحك ففهم يوسف أنه لن يفعل على الأرجح لكنه لم يعلق على الأمر مرة أخرى، نزلت من عند يوسف وتوجهت فورًا صوب منزلي، وعندما وصلت قمت بتجهيز حقيبة السفر فورًا، السفر إلى المغرب في الظروف العادية

حلم جميل بالتأكيد، لقد سمعت الكثير عن هذا البلد الساحر لكن لم تسنح لي فرصة زياته من قبل، يقال إن الرباط مدينة ساحلية جميلة، سيتسنى لي من هناك رؤية البحر وهذا أمر جيد، لكل إنسان وجهة، بوصلة تحركه في حياته، تحددها رغبته الداخلية وأحلامه، إذا ما حددت لنفسي وجهة أزورها في المغرب فبالتأكيد ستكون البحر، لكن ما هي وجهة الطبيب، ما هي الرغبة التي تقوده إلى حيث يذهب؟ أين تحديدًا سيكون عند اكتمال القمر. يبدو أننا كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش، لكن لماذا أنا متشائم هكذا، بالتأكيد يوسف فهمي لديه خطة ويجب أن أثق به، لكنه على كل حال لن يخبرني بهذه الخطة أبدًا، بالتأكيد يوسف مخطط بارع، وهو داهية وغاية في الذكاء بل في معظم الأحيان هو عبقري، لكن ما أدراني أن الأمور ستسير على ما يرام، ففي المرات السابقة لم تسر الأمور على ما يرام على الرغم من أنها بدت كذلك، ففي يوم اقتحام مسرح الجريمة كدنا نحترق هناك موتًا، وقد لاحظ الفتى سليمان وجودنا هناك، وفي يوم اقتحام العيادة باغتنا الطبيب وقد حاول إحراقنا مرة أخرى، يبدو أنني قد استنفدت حظ المبتدئين تمامًا، والخطأ القادم لنا سيكلفني حياتي بالتأكيد.

ما هذا الخوف الذي يعتريني، لي ساعتين في السرير أحاول النوم عبثًا، أنا لست جبانًا طبعًا وإلا ما قمت بكل تلك المغامرات، فعلى الرغم من مخاوفي الكثيرة تجاه المغامرة التي ستبدأ غدًا إلا أنني لطالما رغبت في هذه الفرصة لمواجهة مجرم خطير مثل الطبيب، أنا أعرف أنها مقابلة مرعبة وربما قد لا أعود منها حيًا، لكن أليس هذا الخوف هو ما يجعل المغامرة شيقة ويعطيها مذاق خاص.

نمت في النهاية وصحوت في الصباح دون أن أنال كفايتي من النوم، جهزت نفسي وتوجهت حاملًا حقيبتي إلى منزل يوسف، استقبلني هذه المرة بصورة لائقة وهو مرتدٍ بدلته السوداء المعتادة، كان سمير قد سبقني إلى منزل يوسف وهو جالس فوق طاولة السفرة يمسك شطيرة يدهسها بأسنانه، دلفت إلى داخل المنزل ولم تمر دقيقة حتى جاء يوسف من غرفة نومه حاملًا حقيبة سفر مثيرة للضحك، لونها وردي ومنقوش عليها زهرة حمراء اللون، بدت الحقيبة طفولية ونسوية إلى أبعد حد لكنني لم أعلق عليها وكتمت ضحكتي، نزلنا إلى السيارة التي جلس عند مقودها يوسف بالطبع، وأنا عن جواره، وجلس سمير ومعه الحقائب في الكنبة الخلفية للسيارة، وقبل أن نتحرك في طريقنا سألني يوسف بصدق:

– هل أنت مستعد؟

نظرت خلفي وجواري لأتأكد من أن يوسف يخاطبني، بالتأكيد عندي بعض الندم المتأخر لتلهفي على هذه المغامرة الخطرة لكنه لا يغدو أكثر من توتر طبيعي، فقد جهزت حقيبتي وقابلته اليوم في الموعد المحدد وركبنا السيارة بالفعل فليس هناك مجال للتراجع. أجبت:

– أجل بالتأكيد.

نظر إلى الطريق وأمسك بمقود السيارة وقام بتشغيل المحرك وقال:

– أنت غير ملزم بالذهاب معي يا أحمد، يمكنك التراجع الآن إذا شئت، هذه الرحلة جد خطرة، أنا نفسي ما كنت لأخاطر بالسفر في

تلك الرحلة لولا أن القضية تثير حماستي بصورة عالية.

أجبته بحقة لم أعرف أنها عندي:

– وأنا أيضًا متحمس لتلك الرحلة.

انطلق يوسف بالسيارة في تلك الأثناء وقال دون أن يحيد بناظره عن الطريق:

– الحماسة وحدها لا تنجي من الموت.

شعرت بمزيد من الرهبة عند سماع كلمة الموت، أنا أعرف أننا في مطاردة مع سفاح، لكن الموت لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة، وهذا هو الأمر المثير بشأن الموت، فالإنسان يذهب لمطاردة أكثر أحلامه خطورة ولا يخطر على باله أبدًا أنه بالفعل من الممكن أن يموت، يظن الجميع أن الموت بعيد حتى في أقرب لحظاته منهم، أنا بنفسي قد نجوت مرتين من الاحتراق حيًا ولم أزل أحسب الموت خيارًا مستبعدًا وكأنني بإفلاتي منه مرتين قد أمنت مكره.

ساد الصمت في السيارة لدقيقة حين قال سمير مخاطبًا يوسف:

– لماذا لم تجعلني أقود السيارة إلى المطار بدلًا عنك؟

أجابه يوسف:

– يكفي أنك ستقودها في طريق العودة إلى المنزل بمفردك، هل تعرف لو أصابها مكروه فلن أسامحك أبدًا، سأجعلك تندم إذا ما غفلت عنها لثانية واحدة.

وضع سمير يده فوق كتفي وقال:

– لا أنصحك بالسفر معه فهو رجل متقلب المزاج، ابقَ معي في القاهرة وسأجعلك تقضي ليالٍ جميلة تنسيك القضية والطبيب ويوسف، بل حتى تنسي اسمك، ليالي الأنس لا يمكن تعويضها.

قال عبارته الأخيرة واستغرق في الضحك المتقطع مثل محرك سيارة عتيقة، كانت محاولة لطيفة منه لتهدئة الأجواء قبل السفر وقد نجح فيها فيما يبدو. تثاءب سمير بشدة وكاد يغلق عينيه ويغط في النوم لكنه تمالك نفسه، رمقه يوسف بنظرة عبر مرآة السائق فقال سمير مدافعًا عن نفسه:

– لقد ظللت أفكر في القضية طوال الليل.

قاطعه يوسف دون أن يحيد بناظره عن عجلة القيادة وقال:

– أجل وأنت في الكازينو.

استكمل سمير حديثه:

– أجل في الكازينو، لقد ساعدتني الأجواء اللطيفة هناك على التفكير في القضية.

لم أستطع أن أتمالك نفسي وضحكت بصوت مكتوم، واستأنف يوسف في مهاجمة سمير بالأسئلة فقال:

– وماذا استنتجت من تفكيرك العميق يا شارلوك هولمز عصرك، هل استطعت أن تجد سرًا خطيرًا لم نكتشفه بعد؟

هز سمير رأسه بالإيجاب وقال:

– بالتأكيد، لقد استنتجت أن كل الضحايا هم مرضى نفسيين،

وهم جميعًا مرضى لدى الطبيب طارق، وهو يختارهم بصورة عشوائية حتى لا يلفت الانتباه.

أعجبني ما قاله سمير فأشرت برأسي وقلت:

– أنا عندي التفسير نفسه أيضًا.

ابتسم سمير وشعر بالانتصار لدعمي له ثم تثاءب مرة أخرى، لكن يوسف أجاب بهدوء:

– ليس جميع الضحايا مرضى لدى الطبيب، ثلاثة منهم فقط مرضى لدى الطبيب، فقط الضحايا منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان كانوا مرضى لديه، أما نرمين ووليد فلم أجد لهم ملفات في العيادة قبل أن تحترق وأغلب الظن أنهم أقارب لمرضى عنده، وهذا ربما يعني أنه لا يختار ضحاياه بشكل عشوائي، بل بعد دراسة متأنية، وربما يوجد رابطة ما بينهم جميعًا، ربما كل تلك الجرائم تكمل بعضها بطريقة ما وفي النهاية نجد أنها كلها تشكل صورة واحدة.

لأول مرة في حياتي لا أهتم كثيرًا لتحليل يوسف، لأنه لا يوجد دليل حقيقي واحد يخبرنا بأن الرجل يختار ضحاياه بشكل مترابط، يعتبر الطبيب مجرم خطير وغاية في الذكاء، والجريمة بالفعل مثيرة ومعقدة بما فيه الكفاية، فلا أعتقد أن ينبغي أن نفرط في تقديرنا للجريمة ونخرجها بعيدًا عن سياق القتل العشوائي إلى مرحلة القتل المتعدد والمترابط، قلت معترضًا:

– أعتقد أنك تبالغ في تقدير الطبيب يا يوسف، لا يوجد دليل

واحد يجعلنا نظن أن جرائم القتل كلها مرتبطة ببعضها بعضًا ووراءها هدف واحد، فالطبيب قد قتل أربعة رجال وامرأة إذن فهو لا يقتل بناء على جنس الضحية، ولو نظرنا إلى أعمارهم فنجهدها متفاوتة أيضًا، والأماكن التي ارتكبت فيها الجرائم متباعدة عن بعضها بعضًا ولا يوجد رابطة بينها، حتى ترتيب الضحايا منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، نرمين فرج، وليد حامد، فلا يوجد فيه أي ترتيب أبجدي مثلًا.

قاطعني سمير فجأة وقال:

– تقصد منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، وليد حامد، نرمين فرج، هذا هو الترتيب الصحيح.

بدا يوسف منتبها أكثر هذه المرة وسأل سمير:

– ماذا تقصد؟

أجاب سمير:

– أقصد أن ترتيب فتحي غزلان للضحايا غير صحيح، لأن وليد حامد قد قتل قبل نرمين فرج وليس بعدها، وهو أمر يثير الشكوك قليلًا، لأن نرمين فرج قد أصيبت بالفعل بصورة بالغة وقد ذهبت إلى المشفى في حالة حرجة قبل حادثة وليد حامد بأسبوعين كاملين، لكنها لم تمت وقتها وظلت في المشفى تحت الرعاية لمدة أسبوعين كاملين، وعندما مات وليد حامد كانت بالفعل على قيد الحياة، ولم تمت إلا في اليوم التالي نتيجة أزمة قلبية.

أثار ما قاله سمير حفيظتي، وشككت في البداية أنه لا يزال تحت

تأثير قلة النوم، لكنه كان يتحدث بثقة وثبات تام مما جعلني أفكر فيما قال مليًا قبل أن أقول:

– حتى مع الترتيب الجديد للأسماء فلا يوجد ترتيب أبجدي أيضًا أو أي ترتيب آخر بناء على العمر مثلًا، هذا يدل أنه يرتكب الجرائم بصورة عشوائية بالفعل، فحتى الضحية التي أراد قتلها قبل وليد قد ماتت بعده، وهذا يؤكد نظريتي أكثر.

بدا يوسف متوترًا قليلًا في البداية لكنه لم يعقب مطلقًا وبدا لي مركزًا أكثر في قيادة السيارة، وظل هكذا حتى بلغنا المطار.

ودعنا سمير بهدوء واستكملنا إجراءات السفر وانطلقت بنا الطائرة صوب المغرب، وبالفعل هبطنا في مطار الرباط والمعروف باسم "مطار الرباط سلا الدولي". نظرت في ساعتي لأجدها تشير إلى الثالثة والنصف عصرًا، ركبنا سيارة أجرة وطلب يوسف من السائق أن يأخذنا إلى فندق جيد فعرض علينا أكثر من خيار فطلب منه يوسف أن يختار أكثرهم راحة لأننا نرغب في الهدوء التام، وبالفعل انطلقت السيارة بنا، ونزلنا عند فندق محلى فى المدينة، وبدا لى فندقًا محترمًا يتكون من خمسة طوابق. وفيه بهو واسع تتراص فيه كراسي الاستقبال على الجانبين، استقبلنا عامل الفندق بلطف وكان شابًا وسيمًا صاحب لحية خفيفة، وقام بتوجيهنا إلى الكراس الخشبية الواسعة والمريحة حتى نرتاح أولًا فشكره يوسف، في تلك الأثناء قد نال التعب مني تمامًا، نظر يوسف ناحيتي وقال:

– سوف نحجز غرفة بسريرين فأنا لا أحب أن ينام أحد بجواري.

أجبته:

– ولا أنا، فلا أعرف ما قد تفعله وأنت نائم فربما تخنقني.

نظر يوسف إلى المكان حوله وقد بدأ في مراقبة الناس في صمت كما يفعل دائمًا، فلديه حمى تحليل كل شيء حوله وكأنه لا يتعب أبدًا، لقد بدأت أخيرًا أتعرف عليه جيدًا وأعرف خصاله فهو رجل يحب التفكير ولا يمل منه أبدًا ولا يستطيع أحد أن يشتته، بينما يشتت هو الجميع ويتحدث دائمًا في مواضيع متضاربة لا يجمعها رابط، قال لي:

– سوف نحجز الغرفتين ثم نبدأ فورًا في تحليل الرسالة المشفرة التي قرأتها في دفتر الطبيب، فليس لدينا وقت لأن في مساء الغد سوف يصبح القمر بدرًا، يجب أن نقوم بحل القضية في أسرع وقت وإلا ازدادت فرص هروبه.

أشرت إليه بالنفي وأنا أقول:

– أنا أريد أن أنام، إن لبدنك عليك حقًا يا أستاذ يوسف، عندما نصحو في المساء سوف نبدأ فورًا في العمل، لكن حتى حينها لا تحدثني عن القضية لأن الصداع يعتصر رأسي.

لم يعقب يوسف على كلامي وقد بدا محبطًا لكنه لم يعلق وقد وافق على طلبي مرغمًا ولم يفاتحني في القضية بالفعل، ثم توجهنا نحو طاولة الاستقبال في الفندق وقابلتنا فيه فتاة غاية في الحسن، لها قوام ممشوق، ووجه خفيف الاسمرار ومليح النضارة، وعينين أسود من الليل نفسه وكانت تغطي شعرها بطرحة محلية بيضاء وترتدي قميص أبيض وتنورة سوداء، لم أعهد جمالًا كهذا في حياتي

وقد انجذبت إليها من أول نظرة، وذهب الصداع عن رأسي فورًا ولم أعد أفكر في القضية أو الطبيب أو حتى الرجوع إلى مصر مرة أخرى، أما يوسف فقد وقف أمام المكتب ولم يعلق على جمالها قط ولم تلتمع عينيه، بل ولم يرتعش أو ينتبه لها قط، مما يجعلني أعتقد بل أجزم في نفسي أن قلبه لا يكاد ينبض أبدًا إلا حين يفكر وإلا كيف صمت أمام هذا الجمال الصارخ. وكأنه آلة تتحرك على قدمين. سألها يوسف:

– نريد غرفة لشخصين من فضلك ولمدة ثلاثة أيام، ولا توجد عندي تفضيلات لأدوار معينة ولا غرف معينة، أريد حجز الإفطار والعشاء فقط لأننا في معظم منتصف النهار سنكون في الخارج ولا أريد إزعاج من أي نوع.

لم تجد الفتاة فرصة للحديث وقد ثبتت عينيها على يوسف فتمنيت لو كنت مكانه، لكن يوسف لم يتأثر من سحر عينيها بل فعلت أنا، أجابت الفتاة:

– حسنًا يا أستاذ، أريد منكم فقط مبلغًا ماليًا للحجز.

وقبل أن تنطق مد يوسف يده في جيبه وأمسك بحافظة نقوده ومنها أخرج أكثر من مئتي دولار! وأعطاهم للفتاة التي لم تنطق بعد وقال:

– أتمنى أن يكفي هذا المبلغ لثمن الثلاثة أيام دفعة واحدة.

أجابت الفتاة وأنا أتابع كل حرف يخرج منها بعناية وكأنني قد زال عني إرهاق السفر تمامًا:

– نعم بالتأكيد، فقط يجب عليكم أن تملئوا تلك الاستمارات ببيانات شخصية بسيطة.

وقامت بوضع استمارتين أمامنا للحجز، ومدتنا بقلم واحد فقط فبدأ يوسف في ملء الاستمارة فورًا، بينما حاولت أن أتجاذب معها أطراف الحديث حتى أظفر بسماع نطقها الساحر للكلمات، واستمتع بعينيها لأطول فترة ممكنة فقلت:

– الهواء هنا أكثر برودة من القاهرة لكنه منعش، طقس يشجع المرء للذهاب في نزهة أليس كذلك يا آنسة؟

رمقني يوسف بنظرة ذات معنى وكأنه يقول بعينيه الماكرتين "ألم تكن تريد النوم منذ قليل يا لعين؟". لكنه استكمل الكتابة في ورقته حتى كاد ينهيها وقد بدا أن الفتاة قد أدركت السر من نظرة يوسف فابتسمت لتشرق الشمس وقالت:

– أجل بالتأكيد، توجد الكثير من الأماكن الجميلة هنا التي يمكنك أن تزورها مع صديقك يا أستاذ.

وكأنني قد تلقيت صفعة من خرطوم فيل للتو، لم يعلق يوسف على إهانتي لكنني أعرف أنه في داخله ينفجر من الضحك، هذا على الرغم من أنني لم أشاهد ينفجر مذ عرفته قط، حاولت أن أتظاهر بعدم الاكتراث لما قالته لكنني شعرت بسخونة في وجنتي فأدركت أنهما قد احمرتا، فيما يبدو أن البيولوجيا يجب أن تفقد الإنسان كبرياءه وكرامته، وفي تلك الأثناء قلت:

– وما هي الأماكن التي تنصحيننا بزيارتها هنا في الرباط؟

أجابتني بلطف:

– لحظة واحدة.

ثم تركت إلى يسار طاولة الاستقبال في تجاه روزنامة من الأوراق المطوية وجلبت لي واحدة بيدها الرقيقة وقالت:

– تفضل، هذه ورقة تعريفية بالأماكن السياحية الجميلة في الرباط، يمكنك أن تلقي نظرة بنفسك.

خاب أملي مرة أخرى في فتح حديث مطول معها فأمسكت بالورقة ووضعتها في يدي وأخذت أقلب فيها متظاهرًا بالاهتمام في البداية لكن سرعان ما جذبت اهتمامي صور الأماكن الجميلة التي تزخر بها الرباط، في تلك الأثناء كان يوسف قد فرغ من استمارته فناولني القلم وبدأت في ملء استمارتي حتى انتهيت منها وقام يوسف بتسليم الأوراق لها، ثم تسلم مفتاح الغرفة منها وهي تقول:

– تفضل المفتاح، غرفة رقم 25 في الطابق الثالث.

ثم حيتنا بابتسامة لطيفة وطلبت من عامل الفندق أن يوصلنا إلى غرفنا، فجاء فتى آخر صغير في السن يوصلنا إلى الغرف، حمل الفتى الحقيبتين خاصتنا، ثم تحركنا في البهو في اتجاه المصعد وأنا أقلب في صفحات الورقة التعريفية وأشاهد جمال الطبيعة في المغرب، استوقفتني الكثير من الصور للميناء وللمباني الجميلة وكانت هناك صورة لقلعة مهيبة وأكثر من حديقة خضراء بديعة، بعد القليل من الوقت في مشاهدة الصور الجميلة هاجمني الصداع بضراوة مرة أخرى وغلبني النعاس تمامًا فوضعتها في جيب

معطفي. صعدنا إلى الغرفة خاصتنا، ووضعنا الحقائب جانبًا، ثم قمنا بتبديل ملابسنا وارتديت منامتي القماشية الزرقاء "الكاستور" المريحة وارتدى يوسف منامة شبيهة لها تقريبًا لكن لونها رمادي وجودة أقمشتها أعلى، وما إن رأيت السرير أمامي حتى قفزت فوقه، ولم أفكر في شيء سوى النوم، قال يوسف:

– سوف أوقظك في الثامنة مساءً.

وقد ظننته يمزح وغرقت في النوم، ثم وفي تمام الثامنة مساءً وجدته فوق رأسي يوقظني بطريقة أفزعتني، فقد ظل ينادي باسمي ووجهه على بعد أقل من نصف متر من وجهي، وقد فزعت عندما رأيته كالأطفال، ونظرت له كالمحموم، لقد عرفت منذ سافرت مع يوسف بأن هذه الرحلة ستكون مرعبة، لكنني لم أتخيل أن يصيبني الذعر بهذه السرعة. بدا على يوسف الحرج مما فعله فجلس على كرسي مجاور للسرير وقال محاولًا تعويضي عن تصرفه العجيب:

– لطالما فشلت في إيقاظ أحد من النوم، يبدو أنه أحد تلك المهام اليومية المعتادة التي لن أتقنها أبدًا.

قلت له بتلقائية وكمحاولة مني لإزالة الحرج:

– لكنك تعيش بمفردك، فلا حاجة بك إلى أن تتقنها على كل حال.

لكن لم يبدُ على يوسف الارتياح من حديثي على عكس ما تمنيت، بل على العكس فقد بدا هادئًا أكثر من المعتاد وكانت أول مرة أراه فيها متوترًا.

أخذت حمامًا دافئًا وكان يوسف قد فعلها قبلي، ثم نزلنا لتناول

العشاء في مطعم الفندق، وكان الطريق إليه يمر على مكتب الاستقبال، نظرت هناك فلم أجد فتاة الاستقبال الجميلة فشعرت بالإحباط. تناولنا العشاء سريعًا ولم يتحدث يوسف مطلقًا في أثناء تناولنا للطعام، وبدا متأثرًا بشيء ما لم أعرفه أو اسأله عنه. ثم صعدنا إلى غرفتنا وقام يوسف بإخراج ملف القضية أو هكذا أسميته، وبدأنا في محاولة فك رموز الرسالة الغريبة، والتي هي ليست في الأساس رسالة، بل هي أقرب إلى فقرة من طقس ديني أو طلسم من نوع ما، كنت جالس فوق السرير ويوسف واقف أمامي مستندًا على ظهر كرسي خشبي وهو يقول:

– لنبدأ في تحليل العبارة مرة أخرى وبهدوء، سوف أسردها لك محاولًا تفسيرها وأنت قم بالأمر نفسه أيضًا: "أيها الثعبان القديم الذي أغرى حواء، يا مقتلع الزرع الجيد، يا فينوس، يا أمير الذباب الذي يحوم فوق الثعابين التي تسبح في مياه الحوض الملعون، بينما تبتلع أنت الذهب والفضة، سأحضر إليك بنفسي، هناك داخل نجمة السماء التي تهوى إلى الأرض في منتصف الليل حين يصبح القمر بدرًا"، في البداية يبدو أنه يناجي ثعبان، وهو كائن مكروه في كل الديانات تقريبا حتى الوثنية منها، لأنه نزير شؤم، ثم بدأ يذكر الشيطان بعبارة فينوس، لأن فينوس هو المقابل للشيطان في الأبراج، وأمير الذباب هو الشيطان أيضًا، ويحوم ويطير فوق قفص فيه ثعابين، أو حوض تسبح فيه ثعابين، يبتلع الذهب والفضة بمعنى أنه يأخذ الخير من الناس، سيذهب الطبيب إلى الشيطان بنفسه، في مكان قبته تشبه النجوم، ربما هو مكان مفتوح أو مرسوم على سقفه نجمة، والموعد في منتصف الليل عندما يصبح القمر بدرًا، هذا هو

كل ما أفهمه من الرسالة.

لقد أدهشتني حقًا الطريقة التي قام يوسف بتفسير الرسالة بها، هذا على الرغم من أنه لم يفهمها كلها، لكنه قد فهم جزء كبير منها بالفعل، في تلك اللحظات كان يوسف ينظر ناحيتي منتظرًا أن أقوم بتفسير هذه الشفرة التي كتبها الطبيب، لكن كيف سأفسرها وأنا إلى الآن أخشى ترديها حتى، بالتأكيد أنا رجل متعلم ومثقف ولا أؤمن بالخرافات، لكن الطبيب نفسه يؤمن بها وهو رجل غاية في الذكاء، هذا وحده يجعلني أخاف منها حتى يوم مماتي، لكنني لا أريد إحباط يوسف لهذا قلت:

– نعم تفسيري هو نفس تفسيرك تقريبًا، لكن هذا لا يقودنا إلى أي شيء، فنحن لا زلنا لا نعرف وجهة الطبيب المقبلة ولا هدفه القادم.

– من الواضح أنه هنا من أجل القيام بطقس معين وهذا النص المكتوب هو نشيد أو تعويذة.

أجبت بمنطقية خالصة:

– ولماذا جاء إلى هنا من أجل الطقس، لماذا لم يقم به في مصر؟ هذا على الرغم من عدم وجود أي دليل بأنه سوف يقوم بهذا الطقس في المغرب فربما هو هنا لاستكمال جرائمه، ألم تقل إن هذا احتمال وارد.

ابتسم يوسف وقال:

– هو احتمال ضعيف جدًا، بالتأكيد هو هنا للقيام بهذا الطقس، أنا لم أعد أظن أنه سيرتكب المزيد من الجرائم ففي آخر ليلة لي

في القاهرة فكرت في الأمر من كل الجوانب وقد استبعدت هذا الاحتمال لعدة أسباب؛ أولًا: لأنه سافر بسرعة بعد ارتكابه لآخر جريمة وفي موعد قريب من منتصف الشهر الهجري "القمري" وهو ما تفسره الفقرة التي كتبها في دفتره الشخصي، ثانيًا: هذا الطقس يتطلب وجود نجمة أو هذا الشيء الذي يريد أن يتقرب منه في وجود نجمة أو وهو أسفل نجمة أو ربما سيقوم برسم نجمة، والنجمة لها خمسة أركان، وقد ارتكب خمس جرائم بالفعل، ثالثًا: لقد قام بإحراق عيادته ونحن فيها، هذا يعني أنه لم يعد يرغب في استغلالها مرة أخرى في القريب العاجل وفيها كل المعدات الخاصة به والتي تساعده في عمله كطبيب أو كسفاح، بينما هنا فلا توجد لديه تلك الأدوات ولا الوقت لارتكاب الجرائم، رابعًا وأخيرًا: من دراستنا لنمط القتل الذي يتبعه الطبيب نجد أنه يختار ضحاياه بعناية، ويقوم بدراسة متأنية للضحية حتى يتأكد من أنه مطابق لمواصفات المخطئين أو المذنبين ويستفيد من كونه طبيبًا لهم، وهنا في المغرب لن يتسنى له القيام بهذا.

لم أعد أندهش من تحليلات يوسف الذكية كالسابق، بل تجاوزت تلك المرحلة وأصبحت أحاول مجاراته والتعلم منه، الخطوة الأولى التي علمني إياها هي أن أقوم بطرح السؤال الصحيح للوصول إلى الإجابة الصحيحة، يجب أن أساعده، يجب أن أجد شيئًا مفيدًا، لكن ما هو يا ترى؟ قلت ليوسف:

– حسنًا يبدو أنك محق مجددًا، والوقت صار يطاردنا، يجب أن نقوم بتفسير تعويذة الطبيب بسرعة ففي مساء الغد سوف يهل القمر.

تحرك يوسف من خلف الكرسي وجلس عليه وقال بنفاد صبر وبعصبية لم أعهدها عليه مطلقًا:

– هذا ما يقلقني، يجب أن اغتنم هذه الفرصة.

ظللنا على حالنا نحاول فك شفرة التعويذة عبثًا، حتى بدأت عزيمتي تضعف تمامًا، وفقدت كل إيماني بقدراتي وبنفسي، كل محاولاتي فاشلة، لو لم يكتشف يوسف السر ويحل اللغز فلن نقوم بحله أبدًا، وهذا يجعلني أشعر بخيبة الأمل في نفسي، لقد اعتقدت سابقًا أنني بالفعل سأكون غير مساعد ليوسف، لكنني إلى الآن لا أستطيع أن أتجاوز حدود عقلي العادي لأصبح مثله.

قضينا تلك الليلة حتى الثانية صباحًا ونحن نحاول دون جدوى، بدا يوسف عصبيًا للغاية وهذا عكس طبيعته العادية، كان يتحرك بتوتر في أرجاء الغرفة، لدرجة أنه ذات مرة قام بركل الكرسي الخشبي وأسقطه أرضًا، وظل على حالته العصبية تلك يفكر لكن من دون جدوى، ولا أذكر أننا قمنا بأمر مفيد حتى الثامنة صباحًا. بدا يوسف متحيرًا ومبتئسًا بدرجة كبيرة، وعندما لم يجد يوسف فائدة ترجى من محاولاتنا البائسة قال:

– ربما لن نصل إلى ما نريده بهذه الطريقة العصبية في التفكير، سوف أتمشى قليلًا في المدينة، هل ترافقني؟

وافقت على طلبه وبدلت ملابسي فورًا، وبالفعل نزلنا إلى الشارع وتمشينا قليلًا بعيدًا عن الفندق، لم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبون تحديدًا فسألت يوسف:

– هل تعرف إلى أين نذهب تحديدًا؟

فأجابني:

– إلى حد ما، فأنا أريد بعض الأشياء من المغرب والتي لا أجدها بسهولة في القاهرة، وقد سمعت من أحد الأصدقاء عن أنها تباع في الرباط، في سوق يدعي سوق "السويقة" في المدينة القديمة.

أوقف يوسف سيارة أجرة، وأخبر السائق أننا نريد الذهاب إلى سويقة، لم يطل بنا الوقت حتى وصلنا إلى هناك، والمكان هو سوق شعبي يكتظ عن آخره بالناس، وتوجد فيه كل أنواع الباعة وأصحاب المحال والمقاهي الشعبية، عندما وصلنا إلى شارع السوق قال يوسف:

– الآن سوف نفترق، سوف أبحث عن تاجر ما هنا لشراء مسحوق عشبي، وأنت غير مضطر إلى البقاء معي طوال اليوم، يمكنك أن تقوم بجولة ونلتقي هنا في بداية شارع السوق عند الظهر.

نظرت في ساعة يدي فوجدتها التاسعة والنصف صباحًا فقلت ليوسف:

– حسنًا الساعة الآن التاسعة والنصف صباحًا، سوف نتقابل في تمام الثانية عشرة ظهرًا.

امتعض يوسف ساخرًا مني ثم أخرج ساعته الدائرية من جيب سترته ووضعها أمام عيني وقال:

– الساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا بتوقيت الرباط يا فالح!

شرعت خجلًا في ضبط ساعتي على توقيت المغرب وفي تلك الأثناء أخرج يوسف نحو مئة وخمسين دولارًا ووضعهم في يدي وقال:

– يمكنك أن تشتري ما تريد.

ثم انطلق في السوق بحثًا عن ضالته التي لا أعرفها، بينما تجولت أنا مبهورًا بالأجواء الشعبية المدهشة للمكان، لطالما سحرتني الأسواق الشعبية بسحر خاص بها. في تلك الأثناء شممت رائحة القهوة المغربية الذكية فجلست إلى مقهي وتناولتها، أحببت مذاقها كثيرًا وبدت لي متبلة، وبقية الوقت قضيته ما بين التجول في الشوارع الجميلة للسوق أو تجربة المأكولات المحلية الشهية، فالطعام يعد أحد أهم المغريات في حياتي، جلست في مطعم شعبي بسيط وتناولت "طاجين اللحم المفروم" وتناولت أيضًا "السخينة" وهو وجبة دسمة ومثيرة للشهية، ثم نصحني صاحب المطعم بتناول وجبة أخرى تدعى "بركوكش" وأخبرني أنها شائعة جدًا خاصة في فصل الشتاء، وأعجبني مذاقها حقًا خاصة مع الخضار والطماطم، ولما أعجبني الطعام قلت في نفسي "ليتك هنا يا سمير، لو تناولت هذا الطعام الشهي لنسيت سهراتك الجميلة".

وعندما انتهيت من تناول تلك الأطعمة شعرت بالتخمة فشكرت صاحب المطعم ودفعت الحساب وتجولت في الشارع حتى أتنفس بعض الهواء محاولًا مساعدة معدتي على الهضم، وقبل أن يصل عقرب الساعات إلى الثانية عشرة ظهرًا صادفني متجر يبيع الهدايا فدخلته، تذكرت والدتي فاشتريت لها وشاح رمادي اللون ومزركش

بنقوش هندسية بيضاء، واشتريت لوالدي مسبحة ذات أحجار خضراء مضيئة، وأردت أن أحضر شيئًا لسمير لكني تراجعت عندما أدركت أن الأموال تنفد مني، وفي تلك الأثناء شاهدت خنجرًا مغربيًا جميلًا ذا مقبض خشبي وغمد نحاسي بديع ويبلغ طول نصله نحو عشرة سنتيمترات، فتذكرت أننا لسنا هنا في نزهة بل في مهمة، وتذكرت أيضًا كيف لم أكن مفيدا ليوسف في المرات السابقة عندما تعرضنا للخطر وأدركت أن كل هذا كان بسبب عدم جاهزيتي لتلك الأحداث الخطرة، فاشتريت الخنجر من التاجر مدفوعًا بتلك الرغبة لكن مع عدم وجود نية حقيقية لاستخدامه إلا للدفاع عن نفسي في حالات الضرورة القصوى، سمعت مسجد قريب يؤذن لصلاة الظهر، نظرت في ساعتي لأجدها الثانية عشرة والنصف، يبدو أن الوقت قد انقضى بأسرع مما ظننت، وضعت كل مشترياتي في حقيبة يد واحدة وحملتها معي إلى بداية الشارع حيث اتفقت أنا ويوسف، وفي أثناء المشي شعرت بشخص يتحرك خلفي دائمًا، شعرت بالقلق لكن أكملت طريقي في هدوء، وعندما اقتربت من ناصية الشارع سنحت لي فرصة إلقاء نظرة خلفي لأجد شابًا طويل القامة ويرتدي قناعًا بلاستيكيًا يشبه المهرج ولا يظهر منه سوى عينين حادتين النظرات، وكان في نفس طول الطبيب تقريبًا وقد شعرت برهبة منه لأنه ظل يرمقني بنظراته دون أن يتراجع خطوة واحدة، ظللت متجمدًا في مكاني وأنا أراقبه، كان يقف عند بائع خضراوات ويضع يده اليسرى في جيبه ويميل بجذعه إلى الأمام قليلًا، لم تبد عليه علامات التراجع أو الخوف فواصلت المشي في طريقي آملًا أنه ليس الشخص الذي أظنه، كم تصعب الحركة وأنت متوتر، وصلت

إلى ناصية الشارع وانتظرت هناك ريثما يصل يوسف، والشاب المقنع يقف على الناصية الأخرى دون أن يتوارى عن ناظري وكأنه لا يخشاني، وأخذ يبادلني النظرات دون سبب، أنا أعرف تلك النظرات الباهتة والباردة كليلة شتوية، بالتأكيد هو الطبيب، لكن كيف عرف مكاني، وما الذي جاء به إلى السوق؟.. هل قتل يوسف بالفعل والآن هو يطاردني، حمدت الله أنني قد اشتريت الخنجر، يبدو أنني سأضطر إلى استخدامه بأسرع مما تخيلت، لكني لن أهاجمه به، سأنتظر حتى يهاجمني هو أولا فأنا في شارع مكتظ ولا أريد أن أظهر بدور القاتل بل المدافع عن نفسه، أم هل ينبغي أن أستدرجه إلى شارع جانبي وأباغته، هل أنا في الأصل لا أريد مهاجمته بالخنجر لأنني لا أريد أن أرتكب جريمة كما أقول، أم لأنني أخشى أن يراني أحد.

في تلك الأثناء وبينما أنا أنتظر مثقلًا بالقلق، أخرج الشاب المقنع يده من جيبه وأشار إليّ بتحية ودية فرددت بمثلها، يبدو أنه ليس الطبيب كما ظننت، ثم أشحت بناظري عنه بحثًا عن يوسف ولم تمر ثوانٍ حتى ارتطم حجر صغير برأسي من الخلف فتألمت، التفتت لأجد الشخص المقنع يركض مبتعدًا فشعرت بالغضب وركضت خلفه عبر الشارع العمومي، ولم أقدر على مجاراته فهو يقفز راكضًا مثل الغزال، بينما أنا مثقل بحقيبة مشترياتي، ولحسن حظي فقد تعثر في بائع متجول فسقط على الأرض فضاعفت من سرعتي حتى أنقض عليه، وإذا بصوت مكابح سيارة مسرعة عن يساري، نظرت وإذا بها تصدمني بمقدمتها في معدتي، فسقطت بعيدًا وأنا ممسك بالحقيبة في يدي، كافحت حتى لا أفقد الوعي وقد شعرت بغثيان

شديد، وإذا بالشاب المقنع يقترب مني، ثم كشف عن وجهه فإذا به مراهقًا مغربيًا لم يخط شاربه بعد، وظل يتحدث بلهجة لم أفهمها لكنه بدا نادمًا على ما جرى فأدركت أنه يعتذر، وبعدها انطلق بعيدًا، حملني سائق السيارة بمساعدة أحد المارة على الجلوس على مقعد خشبي قد جلبوه من مكان ما، جلست لدقائق وشعرت بالقليل من التحسن، ظل السائق يعتذر مني بلهجة مفهومة وعرض مساعدتي فطلبت منه فقط أن يقلني إلى بداية الشارع وأنا سأتصرف، وبالفعل نقلني حتى ناصية الشارع وقد أصر بأن ينقلني إلى المشفى بعدها لكني رفضت ونزلت من السيارة وشكرته، تفحصت محتويات حقيبتي لأجدها كاملة وسليمة، شعرت بالصداع مرة أخرى وازدادت شعوري بالغثيان وبعض الألم في معدتي وفخذي وسخونة في مفاصل قدمي اليمني تنبئ بألم في طور الظهور، انتظرت يوسف في المكان المتفق عليه حتى وصل حاملًا حقيبة في يده، قلت له:

– يبدو أنك قد اشتريت بعض الهدايا مثلي.

نظر لي مطولًا وأنا متسخ الملابس وقد أطال النظر في وجهي، اقترب مني ووضع يده فوق أنفي ثم أراني إياها فوجدتها مخضبة بالدماء، تفحصت وجهي فشعرت بسائل دافئ يخرج من أنفي ومن جبهتي، وفجأة ازداد شعور الغثيان وفقدت الوعي، وبينما أنا فاقد للوعي رأيت كما يرى النائم حلمًا عجبًا، فقد حلمت بأنني ما زلت في عيادة الطبيب وهي تحترق، لكن هذه المرة بمفردي تمامًا، والنيران تلتهم باب غرفة الكشف وتحاصرني الأدخنة من كل حدب صوب، أخذت أتلفت حولي لأجد شيئًا يساعدني في إخماد الحريق لكنني لم أجد، نظرت في كل مكان حولي مفزوعًا، نظرت إلى الحيطان المزينة

باللوحات الجميلة، وشاهدت لوحة القلعة المبهرة التي تستقر خلف مكتب الطبيب وكانت ألوانها الزيتية تسيح من فرط سخونة الهواء، ولم أجد أمامي مهربًا سوى الشرفة التي قفزت منها إلى الشارع، فاستفقت في السرير مذعورًا، تنهدت كثيرًا وتذكرت الورقة التي تحمل صور الأماكن السياحية في الرباط وقلت بعصبية:

– إنها القلعة.

وجدت نفسي في غرفة الفندق، قفزت من السرير فورًا وشعرت بألم شديد في مفصل ركبتي اليمني لكنه لم يَعُق حركتي، وركضت موجوعا بعشوائية في كل مكان بحثًا عن الورقة المطوية التي تحمل صور الأماكن السياحية حتى تذكرت أنها في جيب معطفي، بحثت عنه حتى وجدته ثم استخرجت الورقة منه، أنا أتذكر أنني قد رأيت صورة قلعة مشابهة للوحة في مكتب الطبيب، ما كان ينبغي أن نحاول فك شفرة التعويذة عبثًا، السؤال الصحيح لم يكن أبدا ماذا يعني نص التعويذة؟.. بل ما هو المكان الذي سيذهب إليه الطبيب ليقولها؟.. أخذت أقلب في الورقة حتى وجدت الصورة، نعم هي القلعة، جريت نحو سرير يوسف الذي كان على بعد خطوات مني وأيقظته بعنف وأنا أعرض الصورة أمام عينيه وأقول:

– لقد وجدت الطبيب.

قرأ يوسف اسم القلعة بصوت مرتفع:

– قلعة شالة.

قلت له مؤكدًا:

– نعم، يجب أن يكون هناك، هذه هي نفس القلعة المرسومة في اللوحة المعلقة في العيادة، أنا متأكد.

سألني متعجبًا:

– ومتى تذكرت تلك اللوحة؟ هل تذكرتها بعدما استفقت من غيبوبتك فورًا؟

أجبته بثقة لا تتناسب مع قولي:

– لم أتذكرها، لقد رأيتها في المنام.

على عكس المتوقع تحولت نظرات يوسف إلى الانتباه وبدا أكثر اهتمامًا وجدية وهو يقول:

– لنأمل أنك على صواب، يجب أن نعرف أولًا ما هي تلك القلعة وما هو المميز بشأنها، كم الساعة الآن؟

نظرت في ساعة يوسف المستديرة التي رأيتها موضوعة على الوسادة جواره وقلت:

– الساعة الآن العاشرة والنصف مساءً.

نزل يوسف عن سريره بسرعة وأخذني من يدي ونزلنا إلى بهو الفندق وتوجهنا رأسا صوب مكتب الاستقبال لنجد حسناء الأمس نفسها تقف في مكتب الاستقبال، وقد ضحكت فور ما شاهدتنا فسألتها متعجبًا:

– ما الأمر؟

فأشارت إلينا:

– أنتم ترتدون المنامات.

انتبهت أخيرًا لموقفنا المحرج وأردت لو تبلعني الأرض، لكن على الأقل فأنا رجل قد أسترد وعيه منذ دقائق فقط فلا يجب أن يحاسبني أحد على أفعالي الآن، أنا حتى لا أدري من الذي قد ألبسني تلك المنامة، وبينما أنا مشتت أجابها يوسف ساخطًا:

– هذا غير مهم.

ثم عرض صورة القلعة عليها وسأل:

– هل تعرفين هذا المكان؟ أين يقع؟

أجابتنا مرغمة:

– قلعة شالة، هي قريبة من الفندق، تعتبر من أشهر الأماكن السياحية في الرباط بل في المغرب كلها.

أكمل يوسف حديثه بنفاد صبر:

– جيد، وما المميز بشأنها؟

أجابته ببساطة:

– هي مكان تاريخي، فيه العديد من الأماكن الجميلة التي يمكنكم رؤيتها.

لم يبد يوسف مرتاحًا لإجابتها فقاطعها وقال:

– هل يحتوي المكان على أفاعي؟

بدت مصدومة من سؤال يوسف، فعلى الأغلب لا يحب معظم

البشر رؤية الأفاعي، فكرت لثوانٍ وأنا متحمس لإجابتها ثم قالت:

– لا.

شعر يوسف بالإحباط الشديد لدرجة أنه تحرك بمفرده نحو المصعد، حاولت مجاراته لكن الألم في قدمي اليمنى قد ازداد وعظام ساقي قد بدأت في إعاقة حركتي، وصل يوسف إلى المصعد قبلي وانتظرني هناك حتى لحقت به بعد كفاح، وقبل أن نركب المصعد إذا بفتاة الاستقبال تلحق بنا وقالت ليوسف:

– ربما أنت لا تقصد الأفاعي بل الأسماك، لقد زرت هذه القلعة أكثر من مرة مع حميد ابن أخي وهناك يوجد حوض يحتوي على الأسماك التي تشبه الأفاعي في حركتها، لطالما ظن حميد أنها أفاعي لكنها في الحقيقة أسماك حوض النون.

نظر يوسف إليها وقد ردت الروح فيه فابتسمت الفتاة بعفوية كأنها الشمس تشرق في ليلنا المظلم، إنها تتحدث عن الحوض المذكور في التعويذة، لقد عرفنا مكان الطبيب أخيرًا، ضحك يوسف بصوت مرتفع كالأطفال فشعرت فتاة الاستقبال الجميلة بالتعجب، بالتأكيد هي تظن الآن أننا مجانين، نظر يوسف ناحيتي وابتسم لكن القط قد ابتلع لسانه فيما يبدو، قلت للفتاة الجميلة:

– ما اسمك؟

– اسمي أمل.

فابتسمت لها وقلت:

– شكرًا يا أمل.

9

نقف في منتصف الشارع الخالي من المارة، وسيارة الأجرة التي أقلتنا تغادر من خلفنا بعيدًا عن المكان لتتركنا بمفردنا تمامًا، نرتدي معاطفنا الشتوية التي بالكاد تدفئنا في ليلة باردة كالموت، وأمام أعيننا تستقر قلعة شالة المهيبة، حركت أصابع يدي لأشعر بالدفء قليلًا فإذا بها ترتعش رعشة خفيفة، نظرت إلى القلعة التي تشبه اللوحة تمامًا، لقد وجدنا سيارة أجرة تقلنا إلى هنا بشق الأنفس، فكما قالت لنا فتاة الفندق "يخشي الجميع هذه القلعة ولا يذهبون إليها في الليل، يقال إنها مسحورة"، وهذا يثير بداخلي المخاوف الطفولية التي تسكن الوجدان، فنحن هنا لمنع مجرم من قول تعويذته، وعلى الرغم من شعوري بأن يوسف لا يؤمن بتلك التعاويذ السحرية إلا أنني أردت أن أشاركه مخاوفي تلك وأن أسأله عن رأيه فيها، فالطبيب رجل متعلم وذكي مثل يوسف إلا أنه يؤمن بتلك الأشياء ونحن على بعد خطوات من المكان الذي سيشهد طقوسه الشيطانية، فهناك احتمال قائم إذن بصحة تلك الأمور، ويبدو أن الرعب قد سيطر على عقلي تمامًا، أردت أن أشعل سيجارة لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة حتى لا يشعر يوسف بقلقي المتزايد كأدخنة حريق لا يهدأ، قلت ليوسف:

– القلعة مهيبة والطقس بارد، يبدو أنه المكان والوقت المناسبين لإلقاء تعويذة، لا يمكن إنكار وجود احتمال ضعيف بأن يكون الطبيب على صواب بشأن تلك التعويذة التي لا نعرف عنها شيئًا.

لم يجبني يوسف ولم يقاطعني فقد بدا مركزًا بصره على بوابة

القلعة، وهذا شجعني أن أستكمل حديثي وأسأله هذه المرة من دون مقدمات:

– هل تؤمن بالسحر والكائنات الغريبة؟

لم ينظر يوسف ناحيتي وهو يجيب بنبرة باردة وساخرة:

– تقصد السحر في قصص الأطفال وحكايات "وحواديت" قبل النوم، هذا يجعل مني الشاطر حسن، هل أبدو لك مثل الشاطر حسن؟

استوعبت درسي جيدًا، ما كان يجب أن أسأل رجلًا عقلانيًا مثله عن تلك الأمور، بالتأكيد هو لا يؤمن بها، في تلك الأثناء أخرج يوسف ساعته من جيب المعطف وقال لي:

– إنها الثانية عشرة إلا ثلث، لقد وصلنا في الوقت المناسب، يجب أن نتحرك.

أتم جملته ثم أخرج قفازه الجلدي من جيب المعطف الآخر وارتداه في يده، لكن قبلها قد لاحظت ولأول مرة خاتمًا فضيًا في الإصبع الوسطى من يده اليسرى، وقد خلعه قبل أن يرتدي القفاز مباشرة ووضعه في جيب معطفه، لم يكن الوقت مناسبًا لسؤاله عن الخاتم فأجلت الأمر، ارتديت قفازي مثله وتأكدت من وجود الخنجر في الجيب الداخلي لمعطفي وتحسست الملمس الناعم لقبضته بيدي ليهدأ قلبي، وفي ذلك الوقت كانت السماء ملبدة بالغيوم فلا نكاد نرى القمر المكتمل إلا قليلًا، وكنا قد تأكدنا قبل نزولنا من حملنا للكشافات اليدوية.

تحركنا بسرعة صوب بوابة القلعة، وجوارها توجد حجرة حراسة مضاءة لكن لا يظهر جوارها أو عبر نافذتها وجه أفراد أمن، عندما اقتربنا من حجرة الحراسة طالبني يوسف بألا أتحدث بإشارة من يده وما كنت لدي نية في التحدث من الأساس، وكنت بالكاد أتمالك أعصابي وأسيطر على نظراتي هادئة، وصلنا عند حجرة الحراسة فنظرنا أولًا عبر النافذة لنجد مكتب الحجرة خاليًا، تحركنا صوب باب الحجرة لنجد فرد أمن مقيدًا بالحبال من يديه وقدميه وملقى على الأرض مثل ذبيحة العيد، اقترب يوسف منه ونظرت أنا جوار المكتب لأجد فرد أمن آخر مقيدًا بالطريقة نفسها لكنه ملقى على بطنه ويديه خلف ظهره، تفحص يوسف الفرد الأول وقال بسرعة:

– إنه مغشي عليه، والآخر أيضًا كذلك بالتأكيد، لا توجد معهما أسلحة لكن هناك غمدًا لمسدس في ملابسهم، لقد كانا يحملان مسدسين وقد انتزعا منهما، لقد وصل الطبيب إلى هنا بالتأكيد، إنه المكان الموعود.

قلت:

– هو مسلح إذن، لكن لماذا لم يقتلهم؟

أجابني يوسف وهو يفتش عن شيء ما فوق مكتب الأمن:

– يبدو أنه لا يقتل الأبرياء، تذكر أننا نتحدث عن مجرم من نوع خاص وهو دقيق في أهدافه.

– لكن كيف تخلص من الحارسين بهذه السهولة؟

ابتسم يوسف بعد أن أمسك بورقة مرسوم عليها خريطة وقال:

– إنه رجل غاية في الدهاء وهو منظم مثل لاعب شطرنج محترف، إنه يثير إعجابي يومًا بعد يوم، على كل حال يجب أن نتحرك الآن لقد عثرت أخيرًا على هذه الورقة التي تحمل خريطة القلعة من الداخل حتى نصل إلى مكان حوض النون بسرعة.

قال يوسف عبارته ثم انطلق إلى داخل القلعة عبر البوابة التي وجدانها مفتوحة مسبقًا، فتحنا كشافاتنا اليدوية لنستدل بها على الطريق ومضينا في طريقنا بالداخل، المكان من الداخل يشبه الحدائق العشبية الجميلة التي تحاوط المباني والأحواش والمنارات والأسوار الأثرية، وكنا نتحرك بسرعة تتعارض مع إصابة ركبتي، لكن تحاملت على نفسي مدفوعًا بغريزة صيد هذا المجرم الفريد من نوعه، بعد أن شعرت بالغيرة منه بطريقة أو بأخرى وهذا بسبب الطريقة التي تحدث عنه يوسف بها، فرغم أنه خصمنا الآن إلا أن يوسف يقدره أكثر مني فيما يبدو، لهذا تذكرت ملاحظتي السابقة والتي تقلل من شأن الطبيب ولكنها لا تبخسه حقه كمجرم عبقري، فعلى الرغم من كونه رجل غاية في الدقة ولا يتصرف إلا بخطة محكمة، لكن هناك شيء واحد فقط فعله يتعارض مع دقته المتناهية، وهو اختيار ضحاياه الذين لا أستطيع نسيان أسمائهم من فرط دهشتي من عد وجود رابط بينهم، قلت مشاركًا يوسف في تساؤلي:

– كيف لرجل دقيق ومحدد مثله أن يختار ضحاياه بعشوائية، إن الأمر يثير الشكوك، منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، نرمين فرج، ووليد حامد، لا يوجد رابط بينهم على الإطلاق، يبدو أنه ليس بالدقة ولا العبقرية التي نظنها عنه؟!

أجابني يوسف بتلقائية:

– منير شداد، أحمد حمدي، محروس الطحان، وليد حامد، ونرمين فرج، هذا هو الترتيب الصحيح كما ذكره سمير.

أجبت باستخفاف:

– وما الفرق؟

كنا نركض بسرعة بالفعل لكن يوسف توقف فجأة ففعلت مثله، نظر إلى وجهي بعينين قلقتين مفتوحتين عن آخرهما بصورة عجيبة، تلك النظرة المخيفة لم أبصر مثلها على وجه يوسف منذ عرفته، أصابني التوتر والقلق وقبل أن أنطق فاجأني بالقول:

– الآن فهمت كل شيء، منير (م)، أحمد (أ)، محروس (م)، وليد (و)، نرمين (ن)، إنه مامون.

لم أعرف ما يقصده يوسف بهذا الاسم الذي نطقه دون مقدمات، لكنه قاله بطريقة تثير الخوف والقلق في نفسي، فما الذي قد يجعل يوسف يخاف إلى هذه الدرجة يا ترى، قتلني الفضول قتلًا لكني مع ذلك لم أجرؤ على السؤال الذي أشعر أني سأعرف إجابته تاليًا دون أن أطرحه.

وفجأة شعرنا بتقطيع في إضاءة المصابيح، ومن العدم سمعنا صوت نباح كلاب شديد يشق قلب الليل وخطوات أقدام تركض ناحيتنا من كل النواحي، تلفت يوسف يمينًا ويسارًا ثم نظر لي بجدية تامة وقال:

– لنركض بأقصى سرعة.

ثم جرى يوسف في اتجاه مخالف لخط سيرنا فتبعته وأنا لا أفهم من أين أتت تلك الأصوات، وما الذي يحدث لنا الآن، وبينما نركض سمعت أصوات زمجرة كلاب شرسة لم أعرف من أين أتت، كافحت لألحق بيوسف فأنا متأخر عنه قرابة ثلاثة أمتار بسبب إصابة قدمي التي تعوقني وتؤلمني بشدة، ثم رأينا سورًا حجريًا عبر ومضات الكشافات المتقطعة، فأشار يوسف نحوه بيده اليسرى وقال:

– هناك يا أحمد.

لم أفهم ما يقصده إلا عندما أزيحت بعض السحب عن القمر ليضيء المكان قليلًا، أبصرت من حولي عدد كبير من الكلاب السوداء كالليل وأعينها تلتمع كحبات الخرز، تكشر عن أنيابها بضراوة وتحاصرنا من كل حدب وتنبت من العدم ويزداد عددها بصورة لا معقولة ليبلغ نحو الخمسين أو يزيد، سرت رعشة في قلبي وضغطت بكل قوة على عضلاتي لألحق بيوسف الذي وصل إلى ذلك السور المرتفع وتسلقه بصعوبة وجلس فوقه. اقتربت الكلاب مني من الخلف وقفز أحدهم عن يميني ليفتك بي لكنه لم ينجح في غرز المخالب الحادة في قدمي، ولحقت بالسور وما كدت، ثم تسلقت وأمسك يوسف بيدي وشدني إليه حتى بلغت جواره مرتعدًا مثل فأر طريد، وضربت الكلاب بالمخالب في السور وعوت ونبحت وكأننا طعامها المنتظر، وكنت أرى أفواهها شاغرة واللعاب يغطي أنيابها الفتاكة، تابعتها برهبة حتى سال العرق مني وتبدل شعوري بالبرودة إلى سخونة في جسدي تخرج في أنفاسي التي يهتاج بها صدري

وفمي.

بحث يوسف حوله عن حجارة ليضرب الكلاب ولم يجد، وبينما اشتدت أنفاسي اضطرابًا تزايد نباح الكلاب عدوانية وشراسة، استلقيت بظهري فوق السور ونظرت نحو القمر الذي تكاثفت الغيوم حوله ولم تغطيه بعد، وشل تفكير ولم أجد مخرجًا لنا من هذا المأزق المفاجئ، حيث لم أشاهد في حياتي كلاب هائجة بتلك الصورة الجنونية وكأنها تتعطش لدمائنا. أخرجني يوسف من حالة توهاني وطالبني ألا أترك مكاني، وكان السور يمتد عرضه لقرابة العشرين مترًا ومن خلفه تقع أحواش تشبه الغرف، فنزل يوسف من الناحية الخلفية للسور ليتأكد من عدم وجود كلاب فيها وبالفعل لم يجد ولا واحدًا، تبعته نازلًا إلى تلك الناحية حامدًا الله على نعمة الحياة، وعازمًا على الخروج من تلك القلعة المشئومة، لكن يوسف بدا غاضبًا وغير مرتاح على الإطلاق لكنني رأيت عينيه تلتمع مجددًا بشكل مبهر وتتقد بالحماسة التي لا تهدأ فأدركت أن خروجي من هنا حيًا في تلك اللحظة هو حلم لن أحصل عليه بهذه السهولة ولا السرعة، لم يعرف يوسف ما علينا فعله وظل يفكر مليًا ليجد حلًا لعدم قدرتنا على الذهاب ناحية كلاب الموت تلك حتى شاهد جزوع أشجار ملقاة بالقرب من السور، أمسك بجزعين شديدين وطالبني بأن أشعل النيران فيهما بأعواد الثقاب، أخرجت العلبة من جيبي وكنت أرتعش مثل وريقة في الخريف، سقطت العلبة مني على الأرض فحملها يوسف دون أن يعقب وبدأ في إشعال الأغصان وأمسكني من ساعدي الأيمن وقال بصرامة:

– لا تجبن الآن، فالكلاب تشتم رائحة الجبناء، احمل الغصن

المشتعل وسوف يخشون الاقتراب منك.

حاولت أن ألم شتات نفسي، وأمسكنا بالأغصان المشتعلة، وضعنا الكشافات في معاطفنا، ثم تسلقنا السور عائدين مرة أخرى نحو الكلاب التي لم تتوقف عن النباح قط، نظرت إليهم خائفًا لكن مستبشرًا فقد تناقصت أعدادهم قليلًا، نزلنا إلى الأرض وتراجعت الكلاب إلى الخلف، طالبني يوسف بأن أضع ظهري في ظهره وأن يسير هو في المقدمة وأنا من خلفه ففعلت، وكنا نتحرك ببطء لكننا على كل حال نتقدم في طريقنا نحو الحوض ونحن نشق الظلام المجهول.

ظلت الكلاب تلحق بنا دائمًا في أثناء حركتنا، ولم يبد عليها الخوف الشديد من النيران لكنها لم تهاجمنا، وكنت أشعر بأن هناك المزيد من الكلاب التي لا نراها تترصدنا من بعيد بأعين ملتهبة بالكراهية، ولا أعني بالمزيد خمسين أو مائة، بل شعوري بلمعان الأنياب في الظلام جعلني أعتقد أنهم ربما أكثر من خمسمئة أو يزيد لكني لم أبصر إلا ثلاثين كلبًا على الأكثر.

راودني القلق في خط سيرنا حيث لم ينظر يوسف إلى خريطة المكان منذ تحركنا من عند السور، فسألته:

– هل نسير في الاتجاه الصحيح؟

أجابني بصرامة:

– بالتأكيد.

رأينا لافتة على بعد نحو عشرين مترًا فتحركنا صوبها مسرعين

والكلاب حولنا لا تتركنا، وقبل أن نصل إلى نصف الطريق نحو اللافتة المعدنية ازدادت سرعة الرياح بشكل فائق مما يهدد شعلة النيران بالخمود، وما زاد الطين بلة هو تساقط قطرات المطر، كان الأمر أشبه بحكم الإعدام بالنسبة لنا، فنحن محاطين بالكلاب ولو انطفأت الشعلة فجأة لصرنا عشاءً لتلك الوحوش الهائجة، لم يبدُ على يوسف التأثر الشديد بينما قلبي بدأ يرتعش مثل أصابعي التي تحمل الغصن المشتعل، ولم تعد قدماي تتحملان المزيد من الركض بسبب إصابتي، قال يوسف بثبات:

– لا تقلق، ولا تنظر خلفك.

حاولت ألا أفزع وبدأت أدعو الله أن ينقذني من تلك المحنة وأن ينجيني، وتذكرت الآن فقط كم أنا مقصر في عبادتي ونظرت بألم إلى الشعلة التي تقاوم قطرات المطر وكأنها الأمل الأخير لبقائي حيًا، وبينما أقاوم أفكاري البشعة التي تصور لي الكلاب وهي تنهش لحمي حيًا، سمعت صوت شيخ يصرخ عن شمالنا:

– اذهبوا من هنا يا ملاعين ويلقي عليهم حجارة.

فإذ بالكلاب تتفرق بسرعة شديدة وأقسم إنني رأيتهم يركضون نحو بعضهم بعضًا في أكوام سوداء عملاقة لها أعين تلتمع للحظة وتنطفئ ثم تتكتل في الظلام لتصبح كما الستارة التي تحجب الضوء قبل أن تتلاشي في البعيد، تنهدت أخيرًا بعد أن كادت أنفاسي تنقطع، نظرنا أنا ويوسف عن شمالنا ورأينا شيخًا يرتدي عباءة سوداء ويحمل فوق ظهره بندقية ويغطي رأسه بشال أبيض كالبدو.

اقترب الشيخ منا بخطوات متثاقلة وسألنا:

– كيف دخلتما إلى هنا؟

أجابه يوسف:

– من أنت حتى تسألنا؟

لم يحاول الشيخ أن يقترب منا وظل على بعد قرابة عشرة أمتار وقال:

– أنا غفير في المكان، براعي الحيوانات والطيور وبحرس السمك في الحوض، سمعت الكلاب تعوي فجئت إلى هنا، أنتم مين يا أغراب... لهجتكم غريبة.

شعرت بالطمأنينة قليلًا من طريقة حديثه الهادئة ولأنه أنقذنا من تلك الكلاب المسعورة، أردت أن أتحدث لكن يوسف نطق قبلي:

– نحن من الشرطة المصرية، جئنا إلى هنا في مهمة سرية لنمنع جريمة قتل عند حوض النون، هل رأيت شيئًا غريبًا يحدث هنا اليوم؟

اقترب الشيخ عدة خطوات متثاقلة وهو يقول:

– لا، لماذا لم يدخل أحد الحراس معكم؟

– كما قلت لك فهذه مهمة سرية، أجبني من فضلك هل رأيت شيئًا غريبًا يحدث اليوم؟

– لكن أشعر ببعض القلق الغير مبرر اليوم، أخشى أن شيئًا شريرًا سيحدث اليوم، اتركوني أساعدكم، هل من الممكن أن أرافقكم؟

شعرت بالراحة للشيخ، نظرت في ساعة يدي لأجدها الثانية عشرة إلا خمس دقائق فقلت له مباشرة:

– لا بأس لكن بسرعة فنحن على عجلة من أمرنا... هل تعرف الطريق؟

أجابني:

– أحفظه عن ظهر قلب إنه على بعد دقائق قليلة من تلك اللوحة المعدنية.

أمسك يوسف بيدي وتحرك بسرعة راكضًا نحو اللوحة وهو يخاطب الشيخ قائلًا:

– حسنًا سوف نذهب قبلك، الحق بنا.

كان الرجل على بعد خطوات منا عن جهة اليسار ولم ينتظره يوسف بسبب ضيق الوقت، لم تمضي ثوانٍ حتى وصلنا إلى اللوحة المعدنية التي تشير إلى اتجاه حوض النون، وقد انهمر المطر بشدة فى تلك اللحظات، انطلقنا مسرعين وكان يوسف يتقدمنى بخطوات والشيخ يتبعنا من الخلف ويقترب منا رويدًا رويدًا، مضت دقيقتين ونحن نركض ثم رأينا إضاءة ضعيفة على مدى بصرنا فقال يوسف:

– هذا حتمًا هو، أسرع يا أحمد الوقت يداهمنا.

تحاملت على نفسي وركضت مثل قط يطارد كرة صوف، ويوسف يسابق الريح، بينما الشيخ يلحق بنا من الخلف دون كلل وعندما أصبح على بعد خطوة واحدة مني التفت يوسف وأخرج مسدس قديم الطراز وقام بإطلاق رصاصة عليه فتلقاها في صدره وسقط

على الأرض، تجمدت في مكاني للحظة من فرط المفاجأة غير المبررة وقبل أن أنطق أشار يوسف بيده إلى الأمام وقال:

– اركض في هذا الاتجاه يا أحمد سوف ألحق بك فورًا.

وفي تلك اللحظة رأيت جثة الشيخ تنتفض مثل لعبة بلاستيكية ثم جلس ونظر لي بعينين بيضاوين تمامًا وقد رأيتهما بوضوح، ثم ووقف وكأنه سحب من مكانه، في تلك اللحظة خفتت نيران الغصن الذي أحمله حتى كادت تنطفئ، وقد تجمدت مكاني وأنا أبصر بصعوبة طوله وهو يتزايد ليصبح كيانًا أسود غير متضح الملامح وله يدان طويلتان يصل طولها إلى أكثر من نصف طوله، أخذ يقترب مني ببطء ولم أفق من نوبة الفزع إلا عندما سحبني يوسف بقوة من يدي اليسرى وقال:

– اذهب نحو الضوء البعيد كما قلت لك، لم يعد هناك وقت.

جريت كما قال لي يوسف، جريت كما لم أفعل في حياتي، جريت حتى صرخت عضلاتي من الألم، جريت وأنا أستمع إلى صوت أزيز الحشرات من حولي، وتوقف المطر فجأة، وأخذ الأزيز يتصاعد ولم تمر دقيقة حتى سمعت صوت رصاصة أخرى وشممت رائحة دخان من خلفي، في تلك الأثناء اشتدت سرعة الرياح فانطفأت شعلتي فجأة، بحثت في جيوبي بيدين مرتعشتين عن الكشاف الكهربائي، وحين أمسكته بيدي سقط مني في الأرض المبتلة، بحثت عنه في الأرض حتى وجدته وحين أمسكته شعرت بدغدغة في يدي، حاولت تشغيل الكشاف أكثر من مرة وأنا أركض في طريقي نحو الضوء البعيد الذي أخذ يقترب بشدة، وحين أفلحت في النهاية

وجدت ضوء متقطع كالمرة السابقة، نظرت إلى يديّ فوجدت الذباب والخنافس الطائرة تغطيها، خلعت معطفي لأتخلص منها وفركته في الهواء أكثر من مرة حتى أتأكد من نظافته، وفي إحدى المرات كدت أصدم به شخص ما ففزعت لأجده يوسف وقد خلعه معطفه مثلي وأمسكه في يديه وهو ممسك بكشافه الكهربائي متقطع الإضاءة مثلي، أشرنا بكشافاتنا إلى الأمام نحو الضوء الذي بات على بعد مئة متر منا على الأكثر فرأينا سربًا هائلًا من الذباب والخنافس والحشرات الطائرة يغطي على الضوء الخافت فلا يكاد يظهر منه إلا خيط رفيع، ولا أقصد هنا مئات من الحشرات بل الآلاف، عاودني ألم ركبتي المميت مرة أخرى وشعرت بسخونة في معدتي ولعابًا حارقًا في حلقي، تقيأت فورًا وكدت أسقط على الأرض لكن يوسف أمسكني من ذراعي بقوة وقال:

– سنفعلها هذه المرة أيضًا يا أحمد، لقد تأكدت من الخريطة بأننا في الطريق الصحيح، هذا الضوء مكانه عند حوض النون.

حاولت النظر في ساعة يدي لكنها كانت مغطاة بالمياه والطين، وضوء الكشافات اليدوية بات خافتا للغاية فلا أكاد أرى يدي بوضوح من الأساس، وضع يوسف معطفه فوق كتفيه وانحنى ليغطي به رأسه أيضًا، ففهمت أنه يخطط أن يقوم بخطة شبيهة بتلك التي نجونا بها من حريق العيادة، فعلت مثله دون أن يقول، ثم انطلقنا بأقصى سرعة في طريقنا نحو منبت الضوء عبر عاصفة الذباب والحشرات، متجهان صوب مصيرنا المجهول.

مضى حوالي دقيقتين ونحن نركض على حالنا هذا، سمعنا في

أثناء ذلك صوت بشري يغمغم بكلمات لما نفهمها، وصوت أزيز الذباب يتقلص كلما اقتربنا وجهتنا وكأنها ستارة من الحشرات أسدلت خصيصا لتعوقنا. اختلس يوسف النظر أخيرًا ليجدنا قد عبرنا عاصفة الحشرات، فرفع سترته وألقاها بعيدًا وعدل من وضعية جسمه ليركض بشكل طبيعي وأمسك بالكشاف بشكل جيد فشاهد الضوء متزايد على بعد عشر خطوات منا لكنه يبدو في مستوى أرضي أقل منا، نظر يوسف أمامه ليرى بضع درجات من سلم يتجه بنا نحو الأسفل فانطلق صوبه، فعلت مثله وكان الألم قد بلغ مني أن صرت أكاد أجر قدمي المصابة جرًا، وفي أثناء ذلك سمعنا صوت رجل يصيح:

– أيها الثعبان القديم الذي أغرى حواء، يا مقتلع الزرع الجيد، يا فينوس، يا أمير الذباب الذي يحوم فوق الثعابين التي تسبح في مياه الحوض الملعون، بينما تبتلع أنت الذهب والفضة، سأحضر إليك بنفسي، هناك داخل نجمة السماء التي تهوى إلى الأرض في منتصف الليل حين يصبح القمر بدرًا، لقد جئتك أخيرًا برغبتي بعد أن أتممت طقوسك.

نزل يوسف درجات السلم معي بعد أن لحقت به هذه المرة ولم يسبقني، نظرنا إلى جهة اليمين ونحن نازلين حتى نرى أمامنا ضوء القمر ينعكس فوق مياه الحوض ومن أمامه يقف رجل يقف مقابلًا للحوض بوجهه ولنا بظهره، يقف أمام نجمة خماسية مرسومة بالطباشير الأبيض على الأرضية وتحاوطها من الخارج دائرة، وفي كل طرف من النجمة يوجد شمعة مشتعلة وجوارها قطعة لحم توقعت أنها أجزاء الكبد التي جمعها من ضحاياه موضوعة فوق

حرف من أحرف الاسم المشئوم الذي خمنه يوسف من قبل "مامون"، سبقني يوسف وتحرك ناحية الطبيب بينما تعثرت بمجرد نزولي عن الدرج في حجر فسقطت على الأرضية العشبية المليئة بالحشرات، التفت الطبيب إلينا وقد لاحظنا مسبقًا لكنه لم يعرنا انتباهه لانشغاله بطقوسه، وكان يمسك نصل سكين في كف يده وقد جرح نفسه وسالت الدماء على النصل كنهر من الخطايا ونزلت قطراتها فوق النجمة بينما يصيح يوسف "لا تفعل" ويقول الطبيب:

– لقد تم الأمر!

وفي اللحظة نفسها التي لمست الدماء الأرض انطفأت أضواء الشموع كلها، وانقطع ضوء الكشافات اليدوية وتستر القمر خلف السحب المتكاثفة، وهبت رياح شديدة كادت تحملني بعيدًا، وشعرت بأن الليل صار أشد سوادًا وأعظم حلكة، وشعرت بالحشرات تتحرك فوق جسدي وتعبره منتشرة في كل مكان، والحشرات الطائرة يزداد أزيزها، وبينما الصمت يغلف المكان اشتعلت الشموع في النجمة الخماسية مرة أخرى لأجد الطبيب واقفا أمامها عندها تمامًا، ويوسف يبعد نحو عشر خطوات عنه، وهناك في وسط النجمة هالة سوداء تجسد شكل عملاق أسود طوله أكثر من عشرة أمتار لا تظهر ملامحه حتى في الإضاءة ولا يبدو منه إلا عينان هائلتان مضيئتان بالأصفر تشبهان أعين الأفاعي تنظران لنا من الأعلى، وهما في رأس أسود لا يصل الضوء إليه ولا نبصر فيه مع العينين إلا حلقة من النيران تتوجه حاكمًا للفزع، ومن حولنا في شكل دائري توجد كيانات سوداء مظلمة لا يعكس الضوء شكلها أيضًا ولكننا نشعر بها ونحس بأنفاسها الحارقة، قال الكائن الضخم في وسط الحلقة

بصوت مزعج:

– أنا مامون يا خادمي المطيع، أهلًا بك في ملكوتي، وهنيئًا عليك مجدي.

أجابه طارق:

– لقد حققت مرادك فأغدِق عليّ من ثروتك ونفذ وعدك.

في تلك اللحظات كافحت لأقف على قدميّ الضعيفتين ونجحت، بينما يوسف أخرج من جيب معطفه المسدس وصوبه تجاه الطبيب وقال:

– اللعنة عليك يا طارق، اللعنة على مامون الشيطان.

لقد أصابني الرعب والفزع منذ بداية دخولي إلى هذه القلعة، لكن ما قاسيته إلى الآن لا يقارن بما قد يحدث بعد أن عرفت أنني أمام شيطان، نظر طارق ناحية يوسف من دون مبالاة وبخيلاء المنتصر، وتحرك الكيان الذي يبلغ طوله عشرة أمتار وتمايل كالأفعى والتصق بالذباب وتشكل على شكل فزاعة بشرية لها نفس العينين الصفراوين للأفعى لكنه لم يخرج من الحلقة الدائرية التي تحاوط النجمة، ونطق مخاطبًا يوسف:

– لماذا تلعنه يا يوسف، ألست جشعًا مثله؟

انتفضت في مكاني عندما نادى يوسف باسمه وظل قلبي يخفق بعنف، ارتعشت يداي وشل لساني تمامًا، نظرت حولي محاولًا إيجاد مخرج من هذا المكان المفتوح في الأساس فشعرت بتلك الكيانات السوداء التي تحاصرنا في حلقة وتراقبنا بأعينها الصفراء الباهتة،

استعد يوسف لإطلاق الرصاص على طارق ولم يجب مامون في تلك الأثناء حاول طارق إشهار مسدسه فصرخ فيه يوسف:

– أنا أراك يا طارق ولن أتردد في قتلك، ولن يدافع عنك شيطانك، ألقِ بسلاحك.

في تلك اللحظة ألقى طارق بمسدسه بعيدًا فوقع بالقرب من الحوض وكاد يسقط فيه، لكن لم يبد عليه التأثر أو الخوف وقال:

– أنا لا أخشاك يا يوسف، لقد جئت إلى هنا من أجل تحقيق مصيري وكذلك فعلت أنت.

صرخ يوسف به:

– أنت تهذي.

ازدادت أعين مامون اصفرارًا في تلك الأثناء وصاح بصوت مرعب مرتفع يصم الآذان فأغلقت أذنيّ فورًا وكذلك فعل يوسف وطارق من فرط الضجيج وسقطنا جميعًا على الأرض محاولين استجماع قوانا، وفي تلك اللحظة قال مامون:

– هل تريد قتله يا يوسف مثلما قتلت من قبل؟.. لقد حمله طمعه إلى هنا، مثلك تمامًا، أنت لم تصل إلى هنا من أجل العدالة في الأساس فهل تنكر ذلك أم هل تخشى الاعتراف أمام صديقك؟

لم أفهم ما يقصده مامون، وقد صرخ يوسف بعصبية قائلًا:

– أنت كاذب.

ثم التفت نحوي وقال:

– لا تصدقه يا أحمد.

نظرنا جميعًا إلى مامون الذي أصبح شكله مثل بشري لا ملامح له وقد شكل الذباب كيانه فأصبح عبارة عن فزاعة مرعبة.

– لا تنكر يا يوسف، أنا أعرف ما الذي جاء بك إلى هنا، ما تريده بحوزتي ولن تحصل عليه إلا بموافقتي، لا تتستر خلف العدالة يا يوسف فكلانا يعرف غرضك الحقيقي.

تنهد يوسف بعصبية ولم يجب، فشعرت بأنه قد استسلم لحديث مامون وسلم به، واهتزت في تلك اللحظة صورة يوسف الساعي إلى العدالة في خيالي، ألم نصل إلى المغرب من أجل تحقيق العدالة كما قال؟.. أم أنها مجرد أوهام وأكاذيب يخفي بها يوسف غرضه الحقيقي؟

أمسكت أنفي لأجد الدماء تسيل منها، زحف يوسف تجاه الدائرة واقترب منها، وهناك كان طارق ملقى على الأرض يصم أذنيه من الألم، كافح يوسف ليقف بمفرده أمام مامون، الذي تحولت رأسه إلى وجه أفعى لها نابان طويلان ولا تزال حلقة من النار تتوجه، ونظر بعينيه إلى يوسف مباشرة فتجمد في مكانه، كانت عينيه أشد وطأة من الموت نفسه وقد تمنيت أن أموت قبل أن أقترب منهما، فاح يوسف مثل ثعبان فبكيت كالأطفال وأشفقت على يوسف الذي لم يقدر حتى على رفع يده بالمسدس في وجه مامون وظل مثل جثة لا تنطق، فتح مامون فمه وأخرج لسانه الطويل وحاول أن يلحس وجه يوسف الذي تراجع في اللحظة الأخيرة قبل أن يقع فريسة له.

كنت أرى ما يحدث بوضوح من مكاني بسبب حلقة النار فوق رأس

مامون، وبينما أتابع بقلق وبقلب يكاد يقف شعرت بأن السماء من حولنا أصبحت سقفًا من الظلام طبعت عليه أعين صفراء متفاوتة الأحجام تشبه عينَي مامون تمامًا وتتابعاننا جميعًا بكراهية من كل الاتجاهات، تجنبت النظر إلى الأعين التي لم تمر ثوانٍ حتى التفتت جميعها نحو يوسف لتحاصره بنظراتها، مد مامون لسانه المغطى باللعاب حتى وصل إلى يوسف، وتحرك على جسده فظننته في أول الأمر يحاوطه لكنه اتجه صوب جيب معطفه وأخرج منه الخاتم الذي رأيته مع يوسف قبل أن ندخل القلعة. خلع يوسف قفاز يده اليسرى بمساعدة فمه وأمسك بالخاتم من على لسان مامون الذي لم يقاومه، وارتدى الخاتم في إصبعه الوسطى. أشار مامون إلى الحوض بيد تلف الأفاعي عليها ويغطيها الذباب وقال:

– اترك طارق لمصيره وانظر إلى البحيرة، فهناك ستجد مرادك.

لم أفهم ما يقصده مامون لكن يوسف تحرك نحو الحوض دون مقاومة أو تردد مما أدهشني، ثم نظر إلى سطح الماء وأطال النظر، فشعرت أنه غلب على أمره فأردت أن أحذره وأنبهه فقلت صارخًا:

– ماذا تفعل؟!

فالتفت إلى بعينين دامعتين وقال بشجن:

– لقد وجدت مرادي أخيرًا، متأسف.

نظر تجاهي بحنين وقد حفرت صورته في مخيلتي، ثم أدار ضهره نحوي ونظر إلى ماء الحوض وقفز فيه.

لم أفهم ما جرى ولم أقدر على استيعابه، لكن نكران الحقيقة لا

يغيرها، فقد قفز يوسف في الحوض وفيما يبدو فلن يخرج منه حيًا أبدًا، هل هنا ستكون نهايتي، هل سألحق بيوسف أم سيلتهمني ذلك المامون، ربما هذه تكون نهايتي بالفعل، لكن ما دامت كذلك فلا فائدة من الاستسلام وعدم المحاولة، وقفت على قدماي ولم تلتفت نحوي الأعين الصفراء التي تحيط بالمكان، مشيت بخطوات متسارعة وأنا أحجل مثل الأعرج وتوجهت إلى الحوض، وهناك وجدت يوسف غارقًا في الأعماق، لم أحسب أن الحوض عميقًا أبدًا ولا أظنه كذلك، لكنه بدا لي عميقًا مثل بحر لا قاع له، جلست عند حافة الحوض وأردت النزول فيه لكن تراجعت عندما رأيت أسماك النون خاصته تشبه الأفاعي وقد صارت شرسة مثل أسماك قرش، أخذت الأسماك تقفز فوق السطح محتفلة بفريستها، وانطلقت نحو جسد يوسف تحاوطه، وكان يوسف يكافح في الماء ليبقى حيًا ويضرب بقدميه ويديه في كل الاتجاهات من دون جدوى، وكلما حاول السباحة صعودا نحو السطح أعاقته الأسماك وأمسكته من قدميه تشده نحو الأسفل، حاولت أكثر من مرة أن أتشجع وأقفز في الحوض لكن الخوف اجتاحني تمامًا، في تلك الأثناء وقف طارق أمام مامون دون أن يعيرني انتباها يذكر، لم يكن طارق فزعًا من شكل الشيطان ولم تنتابه الرعشة مثلي، بل ظل متماسكًا وفرحًا بما يحدث، تحول مامون مرة أخرى ليشبه رجل سمين أصلع، بشرته صفراء كالذهب وطوله يقارب المترين، وله قرنان صغيران في طرفي رأسه ويغطي جسده برداء حريري مطرز بالذهب والجواهر.

– لقد سلمتني المذنبين قبل توبتهم، وأخذتهم بخطيئتهم وما يظلمون، لك أمنية عندي فقلها ولا تتردد فإني أراها في عينيك

وقلبك.

تنهد طارق وقال متعطشًا:

– أريد الذهب.

تشكلت في تلك اللحظة أسراب الذباب على شكل كيس ضخم يصدر صوتًا بداخله مثل احتكاك العملات المعدنية، ومعقود طرفه بخيط حريري أحمر، أمسك مامون بالكيس الذي بلغ طوله مترًا كاملًا وعرضه كذلك، وسأل بخبث:

– كم تريد من الذهب؟

أجاب طارق بسرعة:

– كله، كله!

ضحك مامون بصخب فاهتزت الأرض من أسفلنا، وجحظت الأعين الصفراء كلها وانكمشت الحشرات عائدة إلى جحورها، ثم قال:

– ما زال قارون فيكم أيها البشر، لك ما تريد، ضع يديك في الكيس وأمسك ما بداخله ثم أخرجهما فارغتين.

قال عبارته ثم فتح الكيس، فمد طارق يديه ووضعهما في الكيس، ثم صرخ كالملسوع، وشحب وجهه لهوانٍ قبل أن يهدأ أخيرا ويخرج يديه ترتعشان لكنهما سليمتان، وقال مامون:

– كل معدن تمسه يديك سوف يتحول إلى ذهب بشرط أن تقرأ عليه اسمي.

ابتسم طارق ونظر إلى يديه بفرحة، وضحك بهيستيريا بعد أن حقق مراده أخيرًا، نظرت نحو الحوض مرة أخرى محبطًا، وبرغبة في توديع يوسف للمرة الأخيرة قبل أن أركض بعيدًا عن هنا محاولًا الهرب، وفجأة لاحظت بقعة من الضوء الأبيض فوق سطح الماء، لم أعرف لها مصدرًا، ولاحظت وجود فقاعات مائية وتبعها يوسف خارجًا برأسه من الماء ليأخذ نفسًا أعاد إلى قلبي الحياة مرة أخرى وظل يكافح ليتخلص من الأسماك التي بدأت في مهاجمته بعدوانية، انتبه لنا مامون وطارق أخيرًا. نظر طارق من حوله بحثًا عن المسدس الموجود عند طرف الحوض، وفي الوقت نفسه صاح بي يوسف:

– اهرب يا أحمد، هذه فرصتك الأخيرة!

في تلك اللحظة أدركت بالفعل أنها فرصتي الأخيرة، وقفت على قدمَيّ وتجاهلت كل مخاوفي، وقلت في نفسي "ليس هذه المرة".

استجمعت قواي وشحذت همتي، ومضت نصف دقيقة حتى عثر طارق بعينيه على المسدس الذى كان على بعد نحو عشر خطوات منه ونصفهم مني، ثم انطلق راكضًا نحوه بكل قوته، بينما تحاملت على نفسي وجريت تجاه المسدس أيضًا، لم أهرب من مخاوفي هذه المرة بل ذهبت إليها بإرادتي، سبقني طارق واقترب من المسدس وبات على بعد خطوة واحدة منه وابتسم ببرود كعادته، وكنت متأخر عنه بجزء من الثانية، وما أن أمسك بالمسدس ووقف ليضربني حتى باغته بضربة من الخنجر في بطنه. وكانت هذه ورقتي الرابحة، فقد أدركت أن إصابتي ستمنعني من الوصول

إلى المسدس قبله فركزت رهاني على إخراج الخنجر من غمده في جيبي دون أن يلاحظني، وأن أضربه في اللحظة الأخيرة وقد نجحت.

لن تغادر نظرة الدهشة على وجه طارق مخيلتي، لكنه حتى في هذه اللحظة لم يغير نظرته الباردة المخيفة، سقط المسدس من يده على الأرض، وسالت الدماء من فمه المفتوح وهو يرتعش. هذه هي محاولتي الأولى لقتل أحدهم وقد قاربت على النجاح فيها، لو كان طارق رجلًا عاديًا لاكتفيت بما فعلت وجريت الآن محاولًا النجاة بحياتي، لكنه ليس مجرد رجل بل كابوس يتحرك على قدمين، لهذا أردت التأكد من إنهاء حياته، أمسكته من يده وحركته مرغمًا ليصبح ظهره مقابلًا للحوض، بادرت بإخراج نصل الخنجر من جسده لكنه أخذ يقاومني بكل قوته لأنه طبيب ويعلم أنه بمجرد خروج النصل من جسده سيبدأ في النزيف حتى الموت، أخرجت نصف النصل من بطنه وقد أمسك به بكلتا يديه ولما خارت قواه أخذ يضحك وقال:

– مامون.

فتحول لون نصل الخنجر إلى الأصفر وتحول إلى ذهب تغطيه الدماء، أخرجت النصل كله منه وقذفت جسده في الحوض الذي لونته نافورة الدماء بالأحمر، أدخلت الخنجر في غمده ووضعته في جيب معطفي الداخلي كما كان، ونظرت ناحية مامون الذي أخذ يضحك ويقول:

– كنت أعرف أن الخنجر بحوزتك، لم تخيب ظني.

بدأ الذباب الذي يشكل جسد مامون في التطاير بعيدًا، واختفت

الأعين الصفراء التي تغطي القبة السوداء التي تحيط بنا، والكيانات السوداء التي كانت تحاصرنا تحولت إلى نيران، والنجمة الخماسية اشتعلت وبدأت الحشرات من حولي في الاشتعال وخرجت النيران من الأرض بصورة مخيفة فصرت محاصرًا وسط حلقة من النيران تضيق رويدًا رويدًا، وتزداد لهيبا، جريت ناحية الحوض لأنقذ يوسف، مددت يدي نحو ليقترب مني ويمسك بها فقفزت أكثر من سمكة من داخل الحوض محاولة الانقضاض عليها فسحبتها بسرعة، لقد تبدلت طبيعة الأسماك في الحوض لتصبح أشد شراسة وفتكًا وصار لديها أنياب كالثعابين، وبدأت ألاحظ الألم على وجه يوسف الذي شاهدت الأسماك تهجم عليه واحدة تلو الأخرى وتصطدم به أو تعضه في قدمه أو يده، بدأ دمه يسيل وهو ينظر نحوي غير مبالٍ بما يحدث له، بكيت من قلة الحيلة ونظرت حولي بحثًا عن حبل أو جزع شجرة لأشد به يوسف فلم أجد، نظرت إليه مرة أخرى والحنين يعتصر قلبي، وقد ابتسم لي وصاح بي بصدق:

– دعني هنا ارحل فورًا، ولا تنظر خلفك أبدًا.

بدأت حلقة النيران في الانحسار نحوي وازدادت اشتعالًا، وازداد شعوري بقلة الحيلة، خلعت معطفي وغطيت به رأسي وجسدي العلوي ونظرت إلى يوسف للمرة الأخيرة وأنا استعد لوداعه فلم ينطق وظل صارمًا في نظراته نحوي وكأنه لم يرد أن أتذكره ضعيفًا أو خائفًا.

جريت نحو السلم الحجري وتجاوزت حلقة النيران فاشتعلت أجزاء من ملابسي، صعدت السلم ثم ألقيت بنفسي على الأرض

ودحرجت جسدي عليها، ثم وقفت وارتديت معطفي وركضت بكل ما لدي من قوة وكادت ركبتي تنخلع من الألم، لم أطمئن للحظة واحدة ولم أنظر خلفي أبدا، كدت أضيع في طريقي إلى الخارج فأنا لا أحمل الخريطة، لكني استعنت ببعض اللوحات المعدنية التي قادتني إلى البوابة ومنها خرجت من القلعة ثم تنفست الصعداء لأول مرة في هذه الليلة الطويلة.

ذهبت إلى الفندق وصعدت إلى الغرفة، استحممت لأتخلص من بقايا مغامرتي المميتة، بدلت ملابسي ثم حزمة حقيبة سفري وحقيبة يوسف أيضًا حتى لا أترك أثرًا له هنا، لم يكن بحوزتي مال ففتشت في متعلقات يوسف حتى وجدت مبلغ جيد من الدولارات، حاولت أن أقنع نفسي بالنوم حتى الصباح وفشلت، فكلما أغمضت عيني شاهدت يوسف باكيًا أمامي، بقيت مسهد العينين حتى الصباح، ثم توجهت صوب المطار وحجزت أول رحلة للقاهرة، ولم أجد طيران مباشر فحجزت ترانزيت لأنني لا أطيق البقاء هنا ليوم آخر.

مضت رحلتي إلى القاهرة دون أن ألاحظها، فلم أعد أستمتع بشيء ولا ألاحظ شيء، فقط أسافر هكذا دون روح، وعندما وصلت إلى القاهرة في صباح مساء اليوم التالي توجهت صوب شقتي في حي العتبة، وهناك نمت أخيرًا حتى صباح اليوم التالي وأنا مقرر أن أرجع إلى المنصورة وألا أعود إلى القاهرة، كل شيء هنا في القاهرة سيذكرني بيوسف الذي وعلى الرغم من قصر علاقتي به إلا أنه لن يفارق خيالي أبدًا، فقد حفرت ملامحه في عقلي إلى الأبد، فمعه خضت أشد المغامرات خطورة، ومنه تعلمت أن الموت أقرب إلينا مما

نظن، وأن الحياة غالية فمن أجلها قتلت للمرة الأولى في حياتي.

ذهبت إلى شقة يوسف متمنيًا ألا أقابل سمير لأني لا أطيق أن أخبره بما جرى، ولا أطيق مشاركة تجربتي تلك مع أحد، وقفت أمام باب الشقة الذي لطالما طرقته، وتركت حقيبة يوسف أمامه وفوقها ملاحظة لسمير كتبت فيها "لقد رحل يوسف إلى الأبد وهذه حقيبته، أرجوك لا تبحث عني".

نزلت من العمارة وتوجهت مع حقيبتي إلى محطة القطار، وصعدت إلى متن القطار المتجه إلى المنصورة، وليس معي تذكار من تلك المغامرة إلا خنجرًا ذا نصل ذهبي والكثير من الذكريات.

النهاية